Social immunity to Atheism

Abdul-Aziz al-Sawafi

PhD student in interpretation (tafsir) and Quranic sciences, Aalul-Bayt International University, Iraq. E-mail: a.alsawafi@aldaleel-inst.com

Summary

The public path that must be followed in order to reach the stage of protecting society against atheism is achieved by making people wise. The more we work to expand the circle of wise people in society, the less area through which atheists can have influence on people's souls and minds. In this way, the number of those who follow corrupt and deviate atheistic thoughts would be less and lesser."Wise people" here means those who know well the rules of true thinking firstly, apply them in place to get to the true doctrinal knowledge secondly, and to confirm them in their souls thirdly; so that these would be effective in the situation of motivation and will. In this case, it is man himself who controls and manages his soul in both his perceptual and motivational aspects, and directs himself, in his thoughts, desires and actions, towards his final goal as a human being to reach his sought cognitive and behavioral perfection in this worldly life.

Keywords: protection, atheism, society, self-immunity, external immunity, promotional methods for atheism, education, teaching.

Al-Daleel, 2021, Vol. 4, No. 3, PP.48 -79
Received: 7/8/2021; Accepted: 2/9/2021
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

المناعة المجتمعية من الإلحاد

عبدالعزيز الصوافي

طالب دكتوراه في التفسير و علوم القرآن، جامعة آل البيت العالمية، العراق. البريد الإلكتروني:
a.alsawafi@aldaleel-inst.com

الخلاصة

المسار العامّ الواجب اتّباعه في الوصول إلى مرحلة وقاية المجتمع من الإلحاد إنّما يتحصّل بجعل الناس عقلاء، فكلّما عملنا على توسعة دائرة العقلاء في المجتمع قلّت المساحة الّتي يستطيع الملحدون النفوذ من خلالها إلى نفوس الناس وعقولهم، وقلّ عدد المتّبعين والمنساقين وراء الرؤى الإلحاديّة المنحرفة والفاسدة فكرًا ومآلًا. والمقصود من العقلاء هنا هم العقلاء بمعرفة قوانين التفكير الصحيح أوّلًا، وإجرائها في مقام التفكير للوصول إلى المعارف العقدية الحقّة ثانيًا، وتعزيزها في النفس ثالثًا؛ حتّى تكون مؤثّرةً في مقام النزوع والإرادة، وفي هذه الحالة يكون الإنسان هو الّذي يدير نفسه في بعديه الإدراكيّ والنزوعيّ، ويتّجه في أفكاره ورغباته وأعماله إلى غايته كإنسانٍ، في هذه الحياة، ليصل إلى كماله المعرفيّ والسلوكيّ المنشود.

الكلمات المفتاحية: الوقاية، الإلحاد، المجتمع، الحصانة الذاتية، الحصانة الخارجية، الأساليب الترويجية للإلحاد، التربية، التعليم.

مجلة الدليل، 2021، السنة الرابعة، العدد الثالث، صص. 48 - 79

استلام: 2021/8/7 ، القبول: 2021/9/2

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

© المؤلف

المقدّمة

ظهرت في مطلع القرن الحاليّ هجمةٌ إلحاديّةٌ جديدةٌ وغير مسبوقةٍ هدفها تنقية المجتمع الإنسانيّ من الاعتقاد بوجود إلهٍ مجرّدٍ من المادّة مدبّرٍ للكون والإنسان.

إنّ نجاح هذه الهجمة الإلحاديّة الجديدة لم يكن عائدًا إلى معقوليّة مبادئها الفكريّة ورؤيتها الكونيّة وواقعيّتها، أو حتّى صلاحيّة الأيديولوجيا الّتي تنادي بها وشعاراتها، فلا زال الإلحاد منقوضًا في مبادئه ومآلاته، منذ القدم وإلى يومنا هذا، ولم يصل يومًا إلى الحدّ الّذي يشكّل ظاهرةً شائعةً أو يكتسب الشعبيّة الكبيرة بين الشعوب، لكنّه في عصرنا الحاليّ بدأ يلاقي بعض النجاح الّذي يرجع في أغلبه إلى ضعف المنظومة المعرفيّة والعقديّة وهشاشتها لدى بعض المجتمعات المتديّنة.

وهذا ما استوجب أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ البحث في سبل وقاية المجتمع من هذه الهجمة الطارئة؛ من خلال إيجاد حصانةٍ في نفوس الشبّان أو المتديّنين عمومًا، تقيهم من التأثّر بالفكر الإلحاديّ المعزّز بأدواتٍ وأساليب ترويجيّةٍ جديدةٍ ومؤثّرةٍ.

وسبب اختياري للبحث في سبل وقاية المجتمع من الإلحاد قبل التفكير بعلاج ظاهرة الإلحاد المتنامية في العصر الحديث راجعٌ إلى صواب القضيّة القائلة: الوقاية خيرٌ من العلاج؛ لأنّ الوقاية تقي من خطر السقوط في الإلحاد وآثاره قبل حصوله، وبذلك فهي تغني عن الحاجة إلى العلاج وتبعاته وتكاليفه الباهظة، وقديمًا قالوا في المثل: درهم وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاجٍ، أي أنّ الوقاية بالإضافة إلى أنّها سابقةٌ رتبةً على العلاج لها الأولويّة عليه؛ لأنّها في متناول اليد، ولا تحتاج إلّا لبعض المتابعة والرعاية من الوالدين أو المربّين للناشئة في فترة الصبا والمراهقة لضمان سلامة الفطرة الإلهيّة الّتي أودعها الله ـ تعالى ـ في كلّ إنسانٍ في هذا الكون وتنميتها .

المطلب الأوّل: معنى وقاية المجتمع من الإلحاد

بدايةً لا بدّ من تحديد المقصود من وقاية المجتمع من الإلحاد، وهنا قد يقال: إنّ إعادة من ألحد إلى حظيرة الإيمان بعلاج إلحاده سيقود بالتأكيد إلى تقليص عدد الملحدين، وهذه خطوةٌ مهمّةٌ وأولى على طريق وقاية المجتمع من الإلحاد بتقليل تأثير كثرة وجودهم في شيوع ظاهرة الإلحاد في المجتمع وتفشّيها.

لكنّ المقصود بحثه في هذه المقالة ليس تقليل أعداد من ألحدوا، بل السعي لتحصين نفوس من بقي من المتديّنين من تأثيرات الملحدين حاضرًا ومستقبلًا، أي منع حصول الإلحاد لديهم من البداية؛ لأنّ الوقاية الحقيقيّة والمطلوبة هي الحصانة السابقة على أصل الإصابة بالإلحاد.

وبذلك لا تكون الوقاية المقصودة في هذه المقالة أمرًا في طول علاج الإلحاد أو نوعًا آخر من العلاج،

بل الوقاية المطلوبة هي الوقاية الّتي تسبق حصول الإلحاد، أي الوقاية الّتي يصدق عليها المقوله الشهيرة: "الوقاية خيرٌ من العلاج". فالوقاية المطلوبة هنا هي الّتي لها أولويّةٌ على العلاج فضلًا عن أنّها سابقةٌ له.

كما أنّ المقصود من الإلحاد ـ الّذي ينبغي التوقّي منه ـ في هذه المقالة هو الإلحاد النظريّ، وليس الإلحاد العمليّ[1]؛ لأنّ العمليّ منه، وإن كان منشؤه لدى صاحبه رسوخ المبادئ والرؤى والقيم المادّيّة وشيوعها في المجتمع أيضًا، غير أنّه وبخلاف الملحد النظريّ لا ينطلق في مواقفه وسلوكه من موضوعيّة اعتقاده بنفي وجود إلهٍ فاعلٍ مدبّرٍ لهذا الكون. [محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، ص 21]

وأمّا تقييد الوقاية هنا بالمجتمع، فللدلالة على أنّها تقع في قسمٍ كبيرٍ منها على عاتق القيّمين على صلاح المجتمع، بينما نجد أنّ علاج الإلحاد غالبًا ما يقع على عاتق الشخص الملحد نفسه، أي أنّه بالدرجة الأساس من مسؤوليّات الفرد تجاه نفسه؛ ولذا لا يمكن بلوغه وتحقيقه من دون إقناع صاحبه بضرورة علاج نفسه.

ومثل هذه الوقاية المجتمعيّة كما أنّها تتحقّق أفقيًّا بزيادة عدد الأفراد المحصّنين في المجتمع، تتحقّق عموديًّا أيضًا بزيادة قوّة الممانعة في مواجهة تأثير أساليب الملحدين لكلّ فردٍ منهم.

المطلب الثاني: طرق وقاية المجتمع من ظاهرة الإلحاد

يمكن تقسيم طرق وقاية المجتمع من الإلحاد إلى قسمين أساسيّين:

1ـ الوقاية بمعنى منع التعرّض للخطاب الإلحاديّ الترويجيّ (الوقاية الخارجيّة)

وهذا ما يمكن تحقيقه بأن لا يُجعل أفراد المجتمع عرضةً لتأثير الوسائل الإلحاديّة الترويجيّة، إمّا بحجر وصول تلك الوسائل الإلحاديّة المضلّة إلى عموم الناس المتديّنين، أو باستئصال مصادر ترويج الإلحاد من أساسها، أو ما يصطلح عليه بتجفيف منابع الفساد.

2ـ الوقاية بمعنى تحصين أفراد المجتمع ذاتيًّا من التأثّر بوسائل الملحدين الترويجيّة (الوقاية الذاتيّة).

ونعني بها تحديدًا امتلاك القدرة الذاتيّة على كشف زيف وسائل الملحدين الترويجيّة وبطلانها، وبالتالي عدم التأثّر بها.

وهذه الوقاية إنّما تتحقّق بجعل الأفراد محصّنين ذاتيًّا من التأثّر بوسائل الملحدين فيما تتضمّنه من أفكارٍ ومبادئ مناسبةٍ في مضمونها للرؤية الإلحاديّة، تلك الأفكار الّتي يعمل الملحدون على ترويجها

(1) الإلحاد العمليّ: وهو حاصلٌ لمن لا يكون الله ﷻ حاضرًا في سلوكه بأيّ نحوٍ من الأنحاء؛ نتيجة استغراق الفرد في متابعة رغباته وشهواته وأهوائه المخالفة للدين، رغم أنّه لو سئل عن موقفه الفكريّ لصرّح باعتقاده بوجود إلهٍ لهذا الكون.

ونشرها في المجتمع بآليّاتٍ وأساليب متعدّدةٍ ومؤثّرةٍ. ونحن نريد أن نوجد لدى المتديّنين حصانةً ذاتيّةً تقيهم من التأثّر بها.

وما يهمّنا هو القسم الثاني من الوقاية؛ لأنّ القسم الأوّل وإن كان أحد طرق الوقاية المعروفة والمتداولة، ولكنّ مسألة التوقّي بمنع التعرّض لوسائل الملحدين الترويجيّة – سواءً أكان من خلال اجتناب أصل التعرّض لها باعتزال المجتمعات والبيئات الملوّثة، أو منع وصولها لهم إمّا بإيجاد حائلٍ قهريٍّ بين الناس وبين وسائل الملحدين الترويجيّة، أو من خلال استئصالها من مصادرها ومنابعها ـ أمرٌ يصعب تحقيقه في عصرنا الحاضر إن لم نقل باستحالته؛ لأنّ وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعيّ المعاصرة والدراما قد بلغت حدًّا يستعصي معه منع تلافي آثارها الوخيمة بحجزها أو حجر الناس عنها، فضلًا عن استئصال أصل وجودها. وحتّى لو أمكن حجبها أو تقييدها وضبطها بخصوص الأطفال وبعض الفئات الاجتماعيّة الناشئة، فهي وقايةٌ مؤقّتةٌ وآنيّةٌ، وقد تأتي ظروفٌ أو أزمنةٌ أخرى مغايرةٌ تعيد الأوضاع إلى سابق عهدها؛ لأنّ تلك المبادى والأفكار الإلحاديّة هي أمورٌ متاحةٌ وشائعةٌ تعطى ويروّج لها من خلال توظيف وسائل التواصل الاجتماعيّ والإعلام والدراما.

فليس الغرض الأساس من الوقاية الفاعلة والحقيقيّة هو أن لا يُجعل أفراد المجتمع عرضةً لتأثير الخطاب الإلحاديّ الترويجيّ، بل يجب العمل على جعلهم يقاومون ويمانعون آثاره حتّى مع تعرّضهم لخطابه وأساليبه، وهذا هو جوهر الوقاية الحقيقيّة من الإلحاد، أي بناء الحصانة الذاتيّة من الداخل. نعم، يحبّذ تحذير أفراد المجتمع المتديّن من مساوئ الاحتكاك مع الملاحدة أو الدخول إلى المواقع الإلحاديّة وغير ذلك من طرقٍ وقائيّةٍ خارجيّةٍ قبل تحصين الذات؛ باعتبار أنّ الدفع أولى من الرفع كما يقال.

المطلب الثالث: وسائل ترويج الإلحاد في المجتمع ومبادئها المعرفية

سعى الملحدون إلى ترويج بضاعتهم الفكريّة ونشرها بين أفراد المجتمع، وخاصّةً فئة الشبّان منهم؛ باعتبارها الفئة المهتمّة بالتغيير والتطوير والإصلاح، وبالتالي فهي الأكثر استجابةً وتأثّرًا من غيرها من فئات المجتمع.

وقد اعتمدوا للوصول إلى ذلك الهدف وسائل وأدواتٍ متاحةً في المجتمع، كرّست الرؤى المادّيّة والإلحاديّة في العقيدة والسلوك، ووجدت لها الجماهير الغفيرة والمتابعين الكثر في شتّى أنحاء العالم وبجميع لغاتها.

ولمّا كان الغرض من البحث هو بيان سبل وقاية المجتمع من أساليب الملحدين؛ كان لا بدّ أن نستعرض أهمّ وسائلهم الترويجيّة أوّلًا، ثمّ نقوم بتحليلها لنستنتج ونستبطن ما تتضمّنه من مبادئ

ورؤًى وأفكارٍ خاطئةٍ ومضلّلةٍ ثانيًا.

1ـ وسائل ترويج الإلحاد في المجتمع

ما يهمّنا هنا هو معرفة أهمّ الوسائل المتّبعة والشائعة والمتاحة لدى الملحدين.

وهذه الوسائل الترويجيّة تختلف من مجتمعٍ لمجتمعٍ آخر ومن جماعةٍ لأخرى. وهي بحدّ ذاتها آليّاتٌ محايدةٌ في حمل أيّ مضمونٍ معرفيٍّ أو فكريٍّ، وعامّةٌ يمكن ممارستها من قبل الكلّ في ترويج أفكارهم وتعزيز ثقافتهم في المجتمع، إلّا أنّ الملاحدة قد وظّفوها باحترافيّةٍ عاليةٍ في غرس رؤاهم وترويج أفكارهم الإلحاديّة، ساعدهم على تحقيق ذلك ما وصلت إليه العلوم الحديثة من تقنيّاتٍ وقابليّة اتّصالٍ.

وأهمّ تلك الوسائل المتاحة الّتي اعتمدها الملحدون في ترويج خطابهم الإلحاديّ وصولًا إلى عصرنا الحاليّ.

أوّلًا: القراءة

وهي تتراوح بين القراءة التقليديّة للمطبوعات كالكتب، والمجلّات والروايات الأدبيّة وقصص الخيال العلميّ، وبين القراءة عبر الشاشات المختلفة.

ولعلّ من أشهر نماذج الكتب الإلحاديّة المتداولة والمقروءة في القرن الحادي والعشرين كتاب ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) الّذي أسمّاه "وهم الإله" (The God Delusion)، وقد تمّ طبع ملايين النسخ منه ونشرها بعشرات اللغات المختلفة.

ثانيًا: وسائل الإعلام

الإعلام كلمةٌ مشتقّةٌ من العلم، وتعني إيصال المعلومة، وهو اصطلاحٌ مستحدثٌ أطلقه الناس على عمليّة الإخبار عن الوقائع والأحداث. وعرّف الإعلام بأنّه: «العمليّة الّتي يتمّ فيها نشر الأخبار والآراء والحقائق والأفكار بين الناس بالوسائل المختلفة المتاحة؛ لأجل الإقناع ونشر التوعية والحصول على التأييد» [بدوي ، معجم مصطلحات الإعلام، ص 83 و84]. وتسمّى التقنيّة الّتي تقوم بهذا كلّه "وسائلَ الإعلام".

وقد كان حال الإعلام في بدايات تأسيسه مجرّد وسيلةٍ للإخبار عن الواقع والإنباء عنه، فمهمّته الأصيلة هي نقل الحقيقة إلى الجمهور بإبلاغهم بالوقائع الّتي تجري في مكانٍ ما من العالم، وهو بهذا لا يؤثّر على ثقافة المخاطبين وعقيدتهم، وإنّما يضع الواقع بين أيديهم؛ ليتّخذوا بدورهم الموقف الّذي تمليه عليه ثقافتهم أو أفكارهم وأهواؤهم تجاه الأحداث والآراء الّتي وصلتهم.

إلّا أنّ الإعلام في عصرنا الحاضر بدأ يتحوّل تدريجيًّا إلى وسيلةٍ فاعلةٍ لصياغة الرأي العامّ، فبدل إيصال الحقيقة إلى الجماهير، وظّف الإعلام للقيام بمهمّةٍ أخرى هي إعادة صياغة آراء الجماهير، وبما ينسجم مع ما يريده من يديره؛ ليحكم الجمهور من خلاله على الوقائع بالطريقة الّتي تريدها الجهة الّتي تديره أو الجهة الّتي تقف خلف من يديره. [عمار اليوسف، عقلنة الثقافة، ص 145]

ولعلّ مواقع التواصل الاجتماعيّ من أهمّ أدوات الملحدين في إيصال خطابهم الإلحاديّ وترويجه بين الناس وأكثرها تأثيرًا في النفوس، وهي تختلف عن الأدوات التقليديّة للإعلام من جهة أنّها تفاعليّةٌ، حيث بإمكان المتلقّين لها المشاركةُ في نشر الأخبار ونقلها وترويجها أيضًا، والتعليق عليها دون الاقتصار على تلقّيها فقط، بالمقارنة مع الوسائل الإعلاميّة التقليديّة كالمذياع، والقنوات الفضائيّة، كما أنّها تسمح بتخزين المعلومات، واسترجاعها في أيّ وقتٍ بكلّ سهولةٍ.

إنّ أدنى متابعةٍ لواقع الحال الّذي نعيشه في عصرنا الحاليّ يدلّنا على مدى اهتمام الناس الكبير بمواقع التواصل الاجتماعيّ، ولدى شريحةٍ عريضةٍ من مستخدمي الشبكة العنكبوتيّة، فمنهم من يجلس ساعاتٍ طويلةً أمامها يوميًّا، ومن هنا اتّخذ الملحدون هذا الطريق منفذًا سهلًا لاصطياد فرائسهم.

وقد زاد من تأثيرهم في عامّة الناس ضعف حضور المشتغلين في المجال الدينيّ والدعويّ في هذه الشبكات نسبيًّا وزهدهم بها تحت مبرّراتٍ عديدةٍ، من أهمّها عدم وعي الكثير منهم بأهمّيّتها ومساحة تأثيرها في النفوس إلى جانب عدم القدرة لدى بعضهم على التعامل معها بطريقةٍ مؤثّرةٍ وفعّالةٍ.

وأهمّ أدوات التواصل الاجتماعيّ الموثّرة والشائعة في عصرنا الحالي:

أ- فيس بوك (Facebook)، وهو أحد مواقع الشبكات الاجتماعيّة الأكثر استخدامًا، وقد أحدث قفزةً مهمّةً بوصفه وسيلةً للتواصل مع الأصدقاء وإيجادهم. وهذا ما سمح لمستخدميه بتشكيل تكتّلاتٍ جماهيريّةٍ؛ وفي إطارها، يتعرّف الملحدون على بعضهم من أجل تبادل الآراء والمشاعر والخبرات في الإلحاد، وقد مكّنهم ذلك في الخروج من العزلة الاجتماعيّة الّتي يعيشونها، وهكذا نجد أنّ هنالك الصفحات الخاصة والعامّة والمجموعات الخاصّةً بالإلحاد لكلّ دولةٍ عربيّةٍ أو إسلاميّةٍ، بل وأصبح لكلّ شخصٍ صفحةٌ أو أكثر.

ب- تويتر (Twitter): وهو أداةٌ ترويجيّةٌ تُعدّ أخطر من الفيس بوك من جهة توفّرها على إمكانيّة طرح الشبهات والأفكار بأسطرٍ قليلةٍ من خلال تغريداتٍ وبحدٍّ أقصى يبلغ 280 حرفًا للرسالة الواحدة، من قبيل: إنّ الإسلام دينٌ قام بالسيف والعنف لا بالإقناع والموعظة الحسنة. أو: إنّ الإسلام حرم المرأة من حقوقها واستعبدها، مستغلّين عدم مناسبة هذه الوسيلة للحوارات والنقاشات البنّاءة والفاعلة.

جـ مواقع نشر المقاطع المرئيّة القصيرة وتبادلها وأشهرها: موقع يوتيوب (youtube)، ولعلّ مرتاديها من أكثر المستخدمين للشبكة.

وقد أتاحت هذه الأداة إلقاء الشبهات بنجاحٍ كبيرٍ، فإنّ مقطعًا واحدًا لا يتجاوز دقيقةً واحدةً يسمعه ويراه الملايين قد يتسبّب ـ مع وجود الاستعداد والقابليّة للتأثر به ـ بزلزلة عقائد المتلقّين له وضعضعتها، ويفجّرُ من الأسئلة ما يحتاج إلى أضعاف وقت إلقاء الشبهة من أجل الردّ عليها.

دـ المنتديات العامّة والمواقع والمدوّنات الإلحاديّة وهي أدوات تواصلٍ يتجمّع فيها عادةً الأشخاص من ذوي الاهتمامات المشتركة هدفها التعارف فيما بينهم وإيصال رؤاهم وأفكارهم الإلحاديّة إلى عامّة الناس، وتبادل الأفكار والخبرات بينهم.

ثالثا: الفنون

الفنّ: مجهودٌ إنسانيٌّ لتصوير التأثيرات الناشئة عن حقائق الوجود، والّتي يستشعرها الإنسان بكلّ كيانه ووجوده، حتّى يجسّدها تجسيدًا حيًّا ومؤثّرًا. [جناتي، الفنّ والجمال.. دراسة استدلالية في ضوء أصول الفقه الاجتهادي، مجلّة الاجتهاد والتجديد، العدد: 18، ص 14]

والترويج للفنون ذات الطابع الإلحاديّ يكون بأسلوبين:

أحدهما إثباتيٌّ: يعتمد التأثير التأصيليّ المسمّى التراجيديا (المأساة)، وهو يؤصّل لأسلوب حياةٍ يعتمد رؤًى كونيّةً ونظمًا أخلاقيّةً وأيديولوجيّةً. وهنا يكون عبر تأصيل المحتوى الفكريّ والثقافيّ للملحدين.

وهذا التأصيل الأيديولوجيّ في الفنون التراجيديّة وظّفه الملحدون في ترسيخ قيم الباطل في الاعتقادات والشرّ والعنف، وتحريك القوى والغرائز الحيوانيّة في السلوك، بدلًا من ترسيخ مبادئ الحقّ والخير والصلاح والقيم النبيلة.

وثانيهما سلبيٌّ: يعتمد التأثير النقديّ المسمّى بالكوميديا أو المعبّر عنه أيضًا بالملهاة.

وتوظيف الفنون عند الملحدين هنا يكون عبر نقد الرؤى والنظم الدينيّة والعقليّة بهدف زعزعة الثقة بها في أذهان الجمهور، وبالتالي التمهيد لتلقّي البديل الفكريّ الإلحاديّ اللاعقلانيّ الّذي يتبنّاه صنّاع الكوميديا منهم.

وبذلك استغلّوا الكوميديا الساخرة في الاستهزاء بالقيم والمبادئ الإلهيّة والإنسانيّة الحقّة.

ويُعدّ ريتشارد دوكنز في كتابه "وهم الإله" من أشهر من اتّبع هذا الأسلوب في ترويج الرؤى الإلحاديّة. [المصري، نهاية حلم "وهم الإله"، ص 21]

وإنّ أهمّ الأدوات الفنّيّة الّتي يعتمدها الملاحدة في عصرنا الحاليّ وأكثرها انتشارًا وتأثيرًا في ترويج الإلحاد ما يلي:

1ـ رسوم الكاريكاتير

وهو فنٌّ من فنون الرسم يعتمد رسم صورةٍ تبالغ في إظهار تحريف الملامح الطبيعيّة أو خصائص ومميّزات شخصٍ أو جسمٍ ما، بهدف السخرية أو النقد الاجتماعيّ أو السياسيّ أو الفكريّ وغيره.

ويغلب على الكاريكاتير توظيف الدراما الكوميديّة، فهو فنٌّ يقوم في أساسه على نقد الظواهر الاجتماعيّة والسياسيّة من خلال الرسم. والملحدون ينشرون عددًا مهمًّا من الرسومات الكاريكاتيريّة على مواقع التواصل الاجتماعيّ كموقع فيس بوك وتويتر وفي مجلّاتهم الإلحاديّة المطبوعة منها أو الإلكترونيّة.

2ـ دراما الشاشة

وتعدّ هذه الأداة الفنّيّة هي الأكثر تأثيرًا في النفس من بقيّة أنواع الفنون الدراميّة؛ باعتبار أنّ انشداد النفس وتأثّرها بالتخييل المرئيّ أبلغ من تأثير التخييل المسموع الحاصل في الموسيقى أو المقروء الّذي لصناعة الشعر[1]؛ ليجعل الناس وكأنّها تصدّق، وكما قيل: "عقول الناس في عيونها".

وأهمّ أنواع أدوات دراما الشاشة الإلحاديّة:

الأفلام الدراميّة السينمائيّة والتلفازيّة المتمثّلة بما تنتجه وتروّج له مؤسّسة هوليود الفنّيّة في أفلامها من رؤًى إلحاديّةٍ حول فلسفة وجود الكون والحياة.

وهنالك أفلام الرسوم المتحرّكة للأطفال سواءٌ أكانت الأفلام الكرتونيّة أو أفلام الأنميشن، وهذه الأخيرة هي أفلام رسومٍ متحرّكةٍ محاكيةٍ للواقع أكثر من الأولى، وتمتاز بكثرة التفاصيل والظلال واحتوائها على دراما متنوّعة، بعضها للصغار وبعضها للكبار، ممّا يجعلها أكثر تأثيرًا في الترويج لمبادئ الإلحاد وقيمه.

المطلب الرابع: المبادئ المعرفيّة في وسائل الملحدين الترويجيّة وسبب تأثيرها في أفراد المجتمع

عند تحليل كلّ الوسائل الترويجيّة ـ السابقة الذكر ـ لدى الملحدين تحليلًا معرفيًّا، سنجد أنّ سبب

(1) الشعر: وهو ما يفيد غير التصديق من التخيّل والتعجّب ونحوهما، والغرض منه تحريك الانفعالات والمشاعر النفسيّة. [انظر: المظفّر، المنطق، ج 3، ص 308]

تأثيرها في المتديّنين أو في عامّة الناس يعود إلى أنّها تتضمّن مبادئ معرفيّةً نصدّق بها بتلقائيّةٍ، ولكنّها في حقيقتها غير صالحةٍ للاستعمال المعرفيّ عمومًا، وقد ساعد على قبول عامّة الناس بالخطاب الترويجيّ للإلحاد اعتماد الملحدين في تمريره على أسلوب التدليس على المخاطبين أو المتلقّين من خلال أنّهم لا يستخدمون تلك المبادئ المعرفيّة غير الصالحة بشكلٍ خالصٍ وواضحٍ، بل ويقومون بخلطها مع بعض المبادئ الحقّة والصالحة وباحترافيّةٍ عاليةٍ للوصول إلى المغالطة المنطقيّة والخداع النفسيّ، ومن ثمّ زعزعة الإيمان الدينيّ أو الطعن بالخالق أو التشكيك بالأديان السماويّة، وهذا الأسلوب التدليسيّ ممّا أشار إليه الإمام عليٌّ عليه السلام بقوله: «فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنى» [نهج البلاغة، الخطبة 50].

فالملحدون لا يستخدمون مقبولاتٍ[1] أو وهميّاتٍ[2] أو انفعاليّاتٍ[3] أو مشهوراتٍ[4] خالصةً؛ بل يسعون لخلط كلٍّ من المقبولات بالتجريبيّات[5]، والوهميّات والمشهورات بالأوّليّات العقليّة[6]

(1) المقبولات: هي أحكامٌ نصدّق بها كونها صادرةً ممّن نحبّهم ونجلّهم ونحترمهم ونطمئنّ بصحّة ما يقولون من دون اختبارهم مسبقًا أو قيام برهانٍ على أنّهم كذلك.

(2) الوهميّات: هي جميع الأحكام الّتي ينشأ الحكم بها اعتمادًا على خيالنا قدرةً وعجزًا واضطرارًا. أمّا قدرةً بأن نحكم بإمكان وجود شيءٍ أو إمكان اتّصافه بوصفٍ ما، والسبب هو أنّنا نتمكّن من تخيّل وجوده أو تخيّل اتّصافه بتلك الصفة، ومثاله حكمنا بإمكان وجود الشيء فجأةً بعد العدم من دون الاستناد إلى شيءٍ أوجده، والسبب في ذلك هو مجرّد قدرتنا على تخيل ذلك.

وأمّا عجزًا، فهو أن نحكم بامتناع وجود شيءٍ أو امتناع اتّصافه بوصفٍ ما، والسبب هو أنّنا نعجز من تخيّل وجوده أو تخيّل اتّصافه بتلك الصفة، ومثاله حكمنا بأن ما ليس بمحسوسٍ ليس بموجودٍ؛ لأنّنا نعجز عن إحضار موجودٍ كهذا في خيالاتنا.

وأما اضطرارًا، فهو أن نحكم بضرورة وجود شيءٍ أو ضرورة اتّصافه بوصفٍ ما، والسبب أنّنا مضطرّون في تخيّل وجوده أو تخيّل اتّصافه بتلك الصفة، سواءٌ كان هو في نفسه متّصفًا أو لا، كحكمنا بأنّ العالم في مكانٍ أو أنّه ممتدٌّ إلى ما لا نهاية.

(3) الانفعاليّات: وهي أحكامٌ نصدرها لمناسبتها لحالاتنا الشعوريّة والانفعاليّة الباطنيّة فما نشعر معه بالراحة واللذّة نتيجة وجدان الملائم فهو صحيحٌ، وما نشعر معه بالتعب والألم نتيجة وجدان المنافر لطبيعتنا فهو غير صحيحٍ.

(4) المشهورات: وهي أحكامٌ نصدرها نتيجة اندماجنا المعرفيّ والنفسيّ مع محيطنا واشتهار تلك الأحكام ورسوخها واستحسانها العامّ، وليس نتيجة معرفتنا بمبرّراتها وأدلّتها. كحكمنا بأنّ من يملك شيئًا فإنّه يملك حرّيّة التصرّف فيه كيف شاء.

(5) التجريبيات: هي القضايا الّتي يحكم بها العقل بواسطة تكرّر المشاهدة منا في إحساسنا. فيحصل بتكرّر المشاهدة ما يوجب أن يرسّخ في النفس حكمًا لا شكّ فيه. كالحكم بأنّ النار حارّةٌ. المظفر، محمد رضا، المنطق، ج 3، ص 284.

(6) الأوّليّات العقليّة: هي القضايا الّتي يكون نفس تصوّرنا لمعاني أجزائها كافيًا للتصديق الضروريّ بها من ذاتها فمثل هذه القضايا هي مستغنيةٌ بذاتها وبنحوٍ موضوعيٍّ عن أيّ دليلٍ، كالقضية القائلة: الحادث يحتاج علّةً.

ويخلطون الانفعاليّات بالوجدانيّات[1]، وهذا ممّا يُصعّب من مهمّة التمييز بين تلك المبادئ المعرفيّة التلقائيّة بعضها عن بعضٍ بشكلٍ تفصيليٍّ.

إنّ عمليّة الخلط لتلك المبادئ المعرفيّة الّتي نصدّق بها بتلقائيّةٍ هدفها التشويش على المتلقّي بواسطة توظيف كلٍّ من الفنون الأدبيّة والدراميّة من رواياتٍ أدبيّةٍ وقصص خيالٍ علميٍّ وأفلامٍ سينمائيّةٍ ومسلسلاتٍ وبرامج وإعلاناتٍ تلفازيّةٍ ورسومٍ كاريكاتيريّةٍ وغيرها، وبما يسهّل من عمليّة تمرير أفكار الإلحاد ورؤاه وثقافته إلى أذهان عامّة المتديّنين، بما تتضمّنه تلك المنتجات الترويجيّة من قضايا ومبادئ معرفيّةٍ تلقائيّةٍ وغير صالحةٍ للاستعمال المعرفيّ.

ويكون التأثير التدريجيّ على عامّة المتديّنين من خلال اتّباع عدّة أساليب ترويجيّةٍ، وأهمّها:

الأوّل: غرس الوهميّات الإلحاديّة وترسيخها في النفوس

إنّ توظيف أثر الوهميّات في أساليب الملحدين مبدأٌ أساسيٌّ تقوم عليه البِنية المعرفيّة عند الملاحدة بدل التعقّل، ونعني به ما يسمّيه الفلاسفة وعلماء النفس القدامى غلبة القوّة الوهميّة على القوّة العقليّة.

والأصل في قوّة الوهم أنّها تساعد الإنسان في إدراك المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات، ولكنّها قد تتعدّى لتحكم في الموضوعات المجرّدة فيكون حكمها خطأً؛ لأنّها تحكم على الموضوع المجرّد على غرار ما هو ثابتٌ للموضوع المادّيّ المحسوس؛ ولذلك كان لهذه القوى تأثيرٌ سلبيٌّ في البحث العقديّ؛ لأنّ أساس البحث فيه هو عالم الغيب والتجرّد. [فلاح سبتي، أثر الوهم في الرؤية العقديّة، مجلّة الدليل، العدد الثاني، ص 159]

ويتمّ غرس الوهميّات الإلحاديّة في النفوس وترويجها ـ كحكمنا مثلًا بأن ما ليس بمحسوسٍ ليس بموجودٍ؛ أو أنّ ما ليس له مكانٌ وزمانٌ وجهةٌ ليس بموجودٍ أيضًا؛ لأنّنا نعجز عن إحضار موجودٍ كهذا في خيالنا ـ فننكر فكرة وجود الإله ونزيّف ربوبيّته اعتمادًا على مثل ذلك التخيّل الساذج، ونتيجة تأثير تلك الوسائل الترويجيّة الإلحاديّة في محاكاة الواهمة من قوى النفس البشريّة.

وبالرغم من علم المتلقّي بكذب ما تتضمّنه تلك الأدوات من أحداثٍ وآراءٍ إلّا أنّه يتأثّر بها؛ بالرغم من أنّها أحداثٌ مقطوعٌ بكذبها؛ بل وقد يرتّب عليها آثارًا في معاملاته ومواقفه من الآخرين. فمثلًا الأفلام الدرامية الخرافيّة منها والأسطوريّة يهدف الملحدون من ترويجها إلى تقوية القوّة الوهميّة

(1) الوجدانيات: هي الأمور المحسوسة بالحواسّ الباطنة، والّتي لا يمكن إقامة الدليل عليها، بل هي هي حاضرةٌ بنفسها مثل أنّ لنا فكرًا أو ألمًا أو جوعًا.

الّتي تسعى لحصر إدراكات النفس في الأحكام الحسّيّة المادّيّة على حساب العقل النظريّ بهدف الحيلولة دون تعقّل إمكانيّة وجود العالم الغيبيّ المجرّد أو تقبّله؛ نتيجة رسوخ العقليّة الخرافيّة المضادّة للعقليّة المنطقيّة السليمة.

وهكذا الأمر بتوظيفهم الروايات الأدبيّة وقصص الخيال العلميّ المليئة بالأساليب المجازيّة، كالاستعارات والكنايات والتشبيهات وغيرها من المبالغات والمخيّلات، والنفوس بطبعها مجبولةٌ على حبّ الروايات والقصص؛ لأنّها تُعدّ في كثيرٍ من الأحيان ملجأً يهرب إليه الناس أو الشبّان من عالمهم الحقيقيّ إلى عالم الخيال.

وفي الوقت الّذي يُعدّ فيه الخيال العلميّ أحد أبواب الاختراع والتطوير للأفضل والبحث لاكتشاف المزيد من أسرار الكون وقوانينه، إلّا أنّ التمادي والمُغالاة في ذلك الخيال العلميّ إلى الحدّ الّذي يجعل أبطاله في مقام من لديه سرّ خلق الحياة أو إحياء الموتى، أو إلى درجة دسّ أفكارٍ تتنافى مع أبسط البدهيّات العقليّة، مثل إنكار السببيّة والقول بالصدفة؛ سيصبّ في النهاية في خانة نفي وجود الإله وربوبيّته!

وهنالك أيضًا توظيف الفنون ذات الطابع الإلحاديّ؛ باعتبار أنّ الخيال يمثّل مبدأً لسائر الفنون من الرسم والتصوير والشعر والموسيقى والسينما والمسرح وغيرها، لكنّ الملحدين قاموا باستغلال الفنّ في ترويج أوهامهم وأكاذيبهم أسوأ استغلالٍ تحت شعار حرّيّة التعبير والإبداع، ووظّفوه لأجل اللذّة لا غير.

وكلّ تلك الوسائل والأدوات الفنّيّة تهدف إلى ترسيخ فكرةٍ وهميّةٍ وأساسيّةٍ لدى عامّة الناس، وهي أنّ الأسباب المادّيّة المحضة ـ لا الإله المجرّد غير المحسوس ـ هي المؤثّر الحقيقيّ في هذا الكون المادّيّ.

ويتم ذلك من خلال التركيز على فكرة سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة عوضًا عن هيمنة الذات الإلهيّة على العالَم والكون.

والهدف من ذلك تهميش دور الإله الخالق بتهويل دور العلم في التأثير في عالم الطبيعة ليغطّي على الإيمان بالخالق العليم المدبّر، وترسيخ فكرة أنّ الحياة مادّةٌ وحسب. [محمد حسن أحمد، الميديا والإلحاد، السينما واللاوعي، الخطاب الشعبيّ للإلحاد، ص 77]

ولم يقتصر عمل تلك المؤسّسات الدراميّة في ترويجها للباطل في المعتقد والأخلاق على كبار السنّ والراشدين، بل لم تخلُ حتّى الأفلام الكارتونيّة الّتي تصنع للأطفال من ذلك أيضًا. بل إنّ الأمر أسهل وأيسر هنا باعتبار أنّ قوّة التعقّل لدى هؤلاء الصغار لم تنضج بعد بشكلٍ كافٍ، وهذا معناه أنّ هنالك إمكانيّةً ليس لشلّها عن وظيفتها بالتخييل فحسب، بل وإضعافها أو إماتتها في قبال إنضاج قوّة

الخيال، وهذا ما سيقف حائلًا في مستقبل الطفل دون تعقّل العالم الغيبيّ المجرّد وتقبّله، فضلًا عمّا تشتمل عليه تلك المنتجات التخييليّة من باطلٍ في الرؤيتين الكونيّة والأيديولوجيّة. [انظر: عمار اليوسف، عقلنة الثقافة، ص 151]

وهذا ما حدا بالكثير من الباحثين ورجال الدين في الغرب إلى الدعوة إلى مقاطعة مثل تلك الرسوم المتحرّكة وحظرها؛ لأنّها باعتقادهم تعمل على غرس الأوهام الإلحاديّة وإشاعتها في أذهان الأطفال والناشئة من خلال ترويج قصص الخيال العلميّ أو أفلام الصور المتحرّكة.

وبذلك أسهمت تلك الأساليب الترويجيّة في تعطيل دور العقل على الفرز والتحليل نتيجة محاكاة العمل الفنّيّ أو التخييليّ للأخيلة عبر أكثر من أسلوبٍ أو حاسّةٍ أو أداةٍ، بأن يتمّ تشبيه الخطإ بالصواب في الأمور النظريّة، وتشبيه القبيح بالحسن في الأمور العمليّة ليسهل بعد ذلك تقبّلهما؛ نظير تخيّل الشراب المرّ بأنّه حلو المذاق ليسهل شربه، كما نفعل ذلك مع أطفالنا ليقبلوا شرب الدواء. والعكس كذلك كمن يتخيّل أنّ العسل مرّ المذاق، وأنّه في واقعه قيء النحل فتعافه النفس، أو كاستحضار الخبائث في الذهن حال تناول الطعام ـ وإن لم يشبه طعام المائدة ـ ممّا تمجّه طباع الناس وتنكمش نتيجةً لذلك عن تناوله. [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 252]

الثاني: استثارة الانفعالات المفضية إلى الأحكام الانفعاليّة

ويعدّ الخيال الّذي تستهدفه الفنون عمومًا المحرّك الأساسيّ للمشاعر والأحاسيس؛ باعتبار أنّ المخيّلات تسبّب بسطًا أو قبضًا للنفس من خلال محاكاتها البصريّة والسمعيّة للمخيّلة من قوى النفس الإدراكيّة الباطنيّة، أي أنّها تحاكي العواطف والمشاعر والأحاسيس وتحرّكها، والهدف من ذلك إثارة المتلقّين، بهدف تحفيزهم تجاه أمرٍ معيّنٍ وحثّهم عليه، أو تثبيطهم وتنفيرهم منه.

فمثلًا بعض الكتب والروايات الأدبيّة تلعب على وتر العاطفة أو العشق أو إثارة الغرائز، وبما يقود تدريجيًّا إلى إيجاد رؤيةٍ خياليّةٍ انفعاليّةٍ متنفّرةٍ من معارف الدين المقيّدة للناس وحرّيّاتهم وطموحاتهم بحسب زعمها، وأهمّ تلك المعارف المستهدفة فكرة الإله المدبّر، بتصويرها أنّها فكرةٌ غير جديرةٍ بالثقة والتقديس خصوصًا إذا ما تمّ تحميل تلك الفكرة ما يريدون إيصاله من رؤًى، وإبرازها كصورةٍ في فيلمٍ سينمائيٍّ أو تلفازيٍّ.

والهدف النهائيّ من التركيز على إثارة ذلك التأثير العاطفيّ أو الغريزيّ هو لتعطيل العقل النظريّ أو إضعافه عن التحليل الواقعيّ للأمور، وبرمجة العقل العمليّ تدريجيًّا من خلال غرس الأفكار المفضية إلى المواقف الإلحاديّة، الأمر الّذي يفقد الإنسان في أغلب الأحيان القدرة على التفكير الموضوعيّ، وبالتالي العجز عن الوصول للواقع في نفسه، حيث يسعى كلّ إنسانٍ لتصديق ما يحبّ أن يصدّقه أو

تكذيب ما يحبّ تكذيبه.

وبذلك يفقد مثل ذلك الإنسان السيطرة على نفسه وحسن تدبيرها بأن يسعى لتحصيل أهوائه وشهواته والتنفيس عن مشاعره بأيّ قيمةٍ وثمنٍ.

الثالث: توظيف المشهورات العصريّة في صياغة الرأي العامّ في المجتمع

إنّ الهدف الأساسيّ من الترويج الإعلاميّ للمضامين المعرفيّة ذات الطابع الإلحاديّ هو صياغة الرأي العامّ ومشهوراته المتوافقة مع الرؤية الإلحاديّة، سواءٌ أكانت مشهورات العلم الطبيعيّ أو مشهوراتٍ تمثّل انطباعاتٍ خاطئةً حول الأديان قد تكون كاذبةً أو مبالغًا فيها.

إنّ تلقائيّة التصديق والاعتقاد بمثل تلك المشهورات قادت عامّة الناس إلى تبنّي الآراء الباطلة والأحكام الخاطئة، بل والتكاتف في تبنّيها والدفاع عنها وترتيب لوازمها.

وأهمّ المشهورات العصريّة الملائمة للرؤية الإلحاديّة طغيان النزعة الاستقلاليّة للفرد الإنسانيّ تحت مسمّى الحرّيّة الشخصيّة، واختزال الشرّ والفساد والرذيلة في حدود الإضرار بالغير فحسب، دون الالتفات للأضرار الروحيّة والأخلاقيّة المترتّبة عليها في الدنيا والآخرة.

إنّ تلك المشهورات العصريّة ونتيجةً لكثرة شيوعها في المجتمعات المتديّنة، ونتيجة لتكرار تسويقها من خلال الأعمال الفنّيّة الدراميّة والكوميديّة والإعلام ووسائل التواصل الاجتماعيّ، أصبحت هذه الأفكار والرؤى مشهوراتٍ راسخةً إلى الحدّ الّذي يعاب على الناس مخالفتها، بل ويشنّع على مجرّد انتقادها.

الرابع: التسليم بالمقبولات العصريّة المأخوذة من الرموز الإلحاديّة

تقوم فكرة صناعة الرموز في الرؤية الإلحاديّة على التعريف والدعاية لشخصيّاتٍ مؤثّرةٍ ممّن يحملون رؤًى أو أفكارًا إلحاديّةً من فلاسفةٍ مادّيّين وعلماء تجريبيّين، وبالأخصّ الفيزيائيّين منهم، أو حتّى من الشخصيّات المشهورة الفنّيّة أو الرياضيّة وغيرها من الحاملين لأفكارٍ إلحاديّةٍ، أو تنسب إليهم تلك الأفكار كذبًا وزورًا.

وتعتمد وسيلة صناعة الرموز على توجيه الناس إليهم والأخذ بمقبولاتهم من خلال إيجاد العلقة النفسيّة والعاطفيّة معهم، وبما يؤهّلهم ليصبحوا قدوةً يتأثّر الناس بأقوالهم وينقادون لتعاليمهم وسلوكيّاتهم بدعوى أنّهم من أهل الخبرة أو التخصّص، فتصبح أفكارهم أو حتّى أفعالهم مصدرًا للقبول والتأسّي لدى عامّة الناس، لا سيّما في الأمور الّتي يتحقّق لهم بها نفعٌ، أو تدفع عنهم ضررًا مادّيًّا معيّنًا.

فإذا كان ما ارتبطوا به شخصًا ذا خبرةٍ في مجالٍ معيّنٍ، فإنّ أقواله وأفعاله تصبح مبادئ لأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم كونها صادرةً ممّن نحبّهم ونجلّهم ونحترمهم ونطمئنّ بصحّة ما يقولون من دون اختبارهم مسبقًا أو قيام برهانٍ على أنّهم كذلك، أي أنّ المجتمع يطمئنّ لأفكارهم ويثق بأحكامهم دون أن يكون منشأ تلك الثقة موضوعيًّا.

أو يتمّ عرض الوهميّات على لسان تلك الرموز الّتي تكون مصدرًا لأخذ المقبولات ضمن عرضهم لمقبولاتهم، وهذا ما يؤدّي إلى تعزيز حالة الوهم لدى الناس من خلال أساليبهم، عندما يطرح ذلك الرمز بعض الشبهات الّتي توظّف الوهم في بنائها من قبيل: إنه إذا كان لكل موجود علة فمن خلق الله؟

أو كيف نعبد ربًّا لا نراه؟

أو إذا كان هنالك تدبيرٌ إلهيٌّ فلماذا هنالك شرٌّ في هذا الوجود؟

ولمّا كان عامّة الناس ينجذبون بطبيعتهم إلى تلقّي الأسلوب الخطابيّ والشعريّ ويتأثّرون به أكثر من غيره من الأساليب؛ لذا كان لا بدّ من صناعة رموزٍ أكاديميّةٍ علميّةٍ تعتمد ذلك الأسلوب الخطابيّ والشعريّ وتسويقها. والهدف من كلّ ذلك هو صناعة رموزٍ في الإلحاد الجديد ممّن يكتبون لعامّة الناس ويخاطبوهم بلغتهم.

وقد ساعد الملحدون على تقبّل الناس لأفكارهم والتأثّر بأساليبهم ما تتمتّع به بعض هذه الرموز من كاريزما شخصيّةٍ خاصّةٍ، وأسلوبٍ خطابيٍّ لافتٍ وجذّابٍ .

ومن أهم هذه الرموز لديهم: ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)، ولورانس ستراوس (Lawrence Krauss)، وستيفن هوكينغ (Stephen Hawking) وبيل ناي (Bill Nye) وغيرهم من رموز الإلحاد المعاصر.

وقد قاد الناس إلى الأخذ بتلك المقبولات من هؤلاء العلماء التجريبيّين والتسليم بها انبهارهم وإعجابهم بالنجاح المادّيّ والتقنيّ الّذي تحقّق في مجال العلوم التجريبيّة والتطبيقيّة، ودورها الكبير في تأمين الحاجات المادّيّة البشريّة بعد انتشار المذهب الحسّيّ المادّيّ في الغرب، وتحقيقه لإنجازاتٍ مادّيّةٍ باهرةٍ على المستويين الصناعيّ والتقنيّ، وبالتالي هيمنة ثقافتهم الحسّيّة المادّيّة، ونفوذها في أغلب طبقات المجتمعات الإسلاميّة.

وبذلك أصبحت فكرة التعارض بين العلم والدين أو بين العلم والأخلاق، مسلّمةً من المسلّمات العصريّة الّتي فرغ النزاع حولها من خلال وضع النظريّات المادّيّة حول الإنسان والكون في لباسٍ علميٍّ تجريبيٍّ، ومن ثمّ تقديم العلم في مواجهة الدين بمعارفه وقيمه.

المطلب الخامس: مقوّمات امتلاك الحصانة الذاتيّة من الإلحاد

بعد أن اتّضح فيما سبق أنّ جوهر تأثير الممارسة الترويجيّة للإلحاد هو في بثّ الأفكار والرؤى الإلحاديّة بتضمينها في ألبسةٍ معرفيّةٍ تلقائيّةٍ أربعةٍ هي: الوهميّات والانفعاليّات والمقبولات والمشهورات، ولمّا كانت ظاهرة الإلحاد تجلّيًا لاعتماد منهجيّةٍ معرفيّةٍ فاسدةٍ، تصل النوبة إلى العناصر الواجب امتلاكها للحصانة من تأثير تلك الأساليب الترويجيّة الإلحاديّة.

وهنا لا بدّ من امتلاك أمرين أساسيّين للوصول إلى الحصانة الذاتيّة من أساليب الملحدين الترويجيّة:

الأوّل: القدرة على كشف المبادئ المعرفيّة التلقائيّة وتمييز الصالح من غير الصالح منها.

الثاني: امتلاك رؤيةٍ كونيّةٍ عقليّةٍ.

أوّلًا: القدرة على كشف المبادئ المعرفيّة وتمييز الصالح من غير الصالح منها

إنّ إصلاح الرؤية المعرفيّة هو العطل الأساس والأهمّ الّذي يجب علاجه عند المتديّنين؛ لضمان امتلاكهم الحصانة الذاتيّة من التأثّر بأساليب الملحدين؛ ولذلك يجب عليهم أوّلًا معرفة المبادئ المعرفيّة الصالحة وتمييزها عن غيرها من المبادئ المعرفيّة غير الصالحة، بحيث إذا ما تسلّح المتديّنون بتلك القابليّة أصبحت أساليب الملحدين لديهم مكشوفةً، أي بائنةً في خللها المنطقيّ؛ لأنّها واضحة المنشإ وواضحة الغرض؛ فمنشأ رفضهم للرؤية الإلحاديّة إنّما انطلق من فكرة أنّها تستعمل مبادئ معرفيّةً تلقائيّةً غير صالحةٍ، أو أنّها تشكّك في المبادئ الصالحة وصدقها المطلق، وبالتالي سيكونون محصّنين من التأثّر بأساليب الملحدين، أي صناعة مجتمعٍ لا يمكن خداعه.

وأمّا كيفيّة امتلاك ذلك المعيار والميزان الّذي توزن بها الأديان والعقائد والأفكار، فهذا ما يتمّ إنجازه من خلال تحكيم العقل البرهانيّ[1] في الجانب الإدراكيّ، ولكنّ هذا أمرٌ ليس تلقائيّ التحقّق وإن كان اختياريًّا.

ويُعدّ المنهج العقليّ البرهانيّ السبيلَ لمعرفة الأشياء على حقيقتها، واستكشاف واقعها على ما هي عليه بشكلٍ موضوعيٍّ بعيدٍ عن القصايا المناسبة لأوهامنا الحسّيّة أو الآراء العرفيّة المأنوسة، والاستحسانات والسلائق الشخصيّة الّتي نحبّ أن نصدّق بها لانسجامها مع أهوائنا أو مصالحنا الدنيويّة، أو الركون إلى آراء أكابرنا من الآباء أو العلماء أو رجال الدين.

ويتمّ ذلك بالكشف عن حجّيّة المبادئ العقليّة الواضحة بذاتها؛ لأنّها بدهيّةٌ فطريّةٌ. وهذه المبادئ

(1) العقل البرهانيّ باصطلاح المناطقة يمثّل مرتبةً من مراتب الإدراك الباطنيّ وراء الحسّ والخيال والوهم، وبه تدرك الكلّيّات عند الإنسان، وبه يتميّز ويتسامى عن الحيوانات.

العقليّة الأولى هي الّتي ينبغي أن ينطلق منها الإنسان ليؤسّس معرفته في رؤيته عن الحياة والواقع، فإذا عرفنا ما هو الصحيح منها فسنعرف ما هو الخطأ منها أيضًا، بمعنى أنّ كلّ ما يخالف ويضادّ هذه المبادئ الحقّة هو خاطئٌ؛ لأنّ الخطأ كثيرٌ والحقّ والحقيقة أمرٌ واحدٌ لا يتبدّل ولا يتغيّر بتبدّل الظروف أو تغيّرها، كما نسب إلى أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام قوله: «الحقّ واحدٌ كثّره الجاهلون» [الأحسائيّ، عوالي اللئالي، ج 4، ص 129؛ القندوزيّ، ينابيع المودّة لذوي القربى، ج 1، ص 213]. والمقصود بالجاهل هنا هو غير العالم بذلك الكشف والتمييز لتلك المبادئ.

إنّ تأصيل هذه المبادئ المطلقة الصدق في نفوس الناس وترسيخ امتلاك معرفتها وتمييزها عن غيرها من المبادئ غير الصالحة هو عبارةٌ عن اللقاح الأساسيّ في تحصيل المناعة الفكريّة عند الناس، بحيث تصير هذه المبادئ مثل الميزان الّذي توزن به الأقوال والخطابات الترويجيّة الإلحاديّة الّتي تصل إلى مسامعهم، فيستطيعون بها أن يميّزوا ويفرزوا هذا عن ذاك، فيميّزوا المبادئ العقليّة البدهيّة الموضوعيّة البيّنة بنفسها؛ أي المبادئ الواجبة القبول (البدهيّات الستّ في صناعة البرهان) عن الأقوال المشهورة الشائعة والمقبولة والمستحسنة والقضايا المناسبة لأوهامنا الحسّيّة والمصالح الشخصيّة، فكلّ هذه القضايا نسبيّةٌ ومتغيّرةٌ، بينما تلك المبادئ العلميّة العقليّة السابقة مبادئ مطلقةٌ وواقعيّةٌ وواضحةٌ عند العقل؛ ولذا يستطيعون أن يجعلوها ميزانًا بينهم وبين الناس؛ لكي يزنوا بها الأفكار والعقائد الصحيحة، وهذا هو معنى تمييز المبادئ الصالحة من غير الصالحة.

وهذا المعيار هو في واقعه تمييزٌ للأفكار مطلقًا؛ أي يشكّل أسلوب حصانةٍ لمطلق التفكير الإنسانيّ، فيكون بمثابة المعيار لكلّ ما يردنا من أفكارٍ ورؤًى ومبادئ غير صالحةٍ ضمّنها الملحدون وغيرهم في أساليبهم الترويجيّة، بحيث تكون الفوارق واضحةً بين الأحكام الانفعاليّة والوهميّة والمشهورة والمقبولة من جهةٍ، والأحكام الأوّليّة والوجدانيّة والتجريبيّة من جهةٍ أخرى.

يجمعها ـ أي المبادئ الصالحة ـ أنّ تلقائيّة التصديق بها ناشئةٌ عن خصوصيّات نفس الشيء الّذي نقوم بالحكم عليه.

وأما المبادئ غير الصالحة فيجمعها أنّ تلقائيّة التصديق بها ناشئةٌ عن خصوصيّات الشخص الّذي يقوم بالحكم، لا عن خصوصيّات نفس الشيء الّذي نقوم بالحكم عليه. [محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، ص 55]

أي أنّ المبادئ غير الصالحة لا تضمن لك الواقع وإن كانت تلقائيّةً؛ لأنّها نسبيّةٌ ومتغيّرةٌ. وأمّا المبادئ الأوّليّة كعدم اجتماع النقيضين ومبدإ الهويّة ومبدإ العلّيّة والسنخيّة وأنّ ما بالعرض يرجع إلى ما بالذات، فمثل هذه المبادئ هي مبادئ مطلقة الصدق؛ وليست نسبيّةً؛ لأنّها فوق الزمان والمكان

وبالتالي فهي غير خاضعةٍ لعرفٍ أو دينٍ معيّنٍ؛ ولذا توزن بها مطلق الأديان والعقائد، بل ومطلق الأفكار.

ثانيًا: امتلاك رؤيةٍ كونيّةٍ عقليّةٍ

والمقصود من الرؤية الكونيّة هي النظرة التفسيريّة العامّة للكون والحياة، والّتي تتعلّق بحقيقة الإنسان ومبدئه ومنتهاه، والغاية من الحياة. [المصري، إن كنت عاقلًا فكيف تكون ملحدًا، ص 66]

وتقييدها بالعقليّة بمعنى اعتمادها مبادئ العقل الفطريّة، وامتلاك مثل هذه الرؤية الكونيّة العقليّة هو الأمر الثاني الواجب امتلاكه لتحقيق الحصانة الذاتيّة من أساليب الملحدين الترويجية في المجتمع.

والسبب في ذلك واضحٌ، وهو أنّ الإيمان الدينيّ حتّى يكون مقنعًا ومقبولًا ومن ثمّ راسخًا وحصينًا في نفوس الناس لا تؤثّر فيه أساليب الملحدين المختلفة ينبغي أن يكون معقولًا، ولا معنى للدين المعقول الصحيح إلّا ما وافق العقل البرهانيّ في أصوله ومبادئه النظريّة والعمليّة. وكلّ من دان بدينٍ معيّنٍ من حيث هو ليس كذلك، فهو دينٌ موهومٌ.

وهنالك تلازمٌ ما بين وصولنا إلى المعرفة العقليّة البرهانيّة بالرؤية الدينيّة، وبين امتلاكنا لمعيار التمييز بين المبادئ المعرفيّة الصالحة وغير الصالحة؛ لأنّ وجود المعيار سيقود إلى بناء رؤيتنا الدينيّة بشكلٍ برهانيٍّ عقليٍّ، كما أنّ امتلاكنا للرؤية الدينيّة البرهانيّة العقليّة سيقودنا إلى كشف زيف مضادّاتها المعرفيّة إن وجدت في رؤيتنا الدينيّة والعقديّة. فلا يمكن أن تكون لدينا رؤيةٌ دينيّةٌ برهانيّةٌ عقليّةٌ مع عدم امتلاكنا لذلك المعيار المعرفيّ؛ لأنّ وجود مثل ذلك المعيار سيتيح لنا المقارنة والمفاضلة والترجيح والنقد والأخذ والردّ لما يروّجه الخطاب الإلحاديّ من أفكارٍ ومبادئ باطلةٍ من خلال أساليبه وأدواته المختلفة.

وممّا يدلّ على أهمّيّة امتلاك المعرفة العقليّة البرهانيّة في الرؤية الدينيّة الإلهيّة عمومًا أنّ التعقّل المقابل للوهم والهوى وصف في بعض الآيات القرآنيّة بأنّه الهدف الّذي من أجله تمّ تبيين الآيات؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 242]، فاكتساب الكمالات العقليّة ليس من المقاصد الّتي يريد الدين الإسلاميّ أو القرآن تحقيقها في حياة الإنسان فحسب، بل هي الأساس الّذي تبتني عليه المنظومة الدينيّة الإلهيّة الحقّة؛ والّتي في ضوئها أصبح الإنسان أهلًا لمخاطبته بالنصوص الشرعيّة، كما ورد في العديد من الروايات الشريفة، ومنها ما روي عن الْحَسَنِ بْنِ الْجَهْمِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام: «ذُكِرَ عِنْدَهُ أَصْحَابُنَا، وَذُكِرَ الْعَقْلُ، قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: لَا يُعْبَأُ بِأَهْلِ الدِّينِ مِمَّنْ لَا عَقْلَ لَهُ» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 27، ح 32]، حتّى عدّ تعلّم الحكمة والتعقّل من أفضل

العبادات، وهي المعيار في اختلاف الدرجات، فعن أحمد بن محمّد بن أبي نصرٍ عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته» [الكلينيّ، الروضة من الكافي، ج 2، ص 55، ح 3].

إنّ مشكلة وجود الإلحاد في المجتمع منشؤه الحقيقيّ ليس في شيوع أساليب الإلحاد الترويجيّة فحسب؛ بل في وجود قابليّة التأثّر بها لدى المتديّنين؛ نتيجة وجود التديّن الفاسد أو الهشّ غير المستضيء بالعقل البرهانيّ.

ومشكلة مثل هؤلاء المتديّنين من أصحاب التديّن الهشّ أنّهم يرفضون أو يشكّكون في وجود المعرفة العقليّة البرهانيّة والعقل البرهانيّ بمبادئه وأحكامه مطلقة الصدق، والنظر إليهما نظرةً نسبيّةً لا تملك الموثوقيّة.

وبذلك يتّضح أنّ مثل أولئك المتديّنين لم ولن يستطيعوا أن يحسموا صراعهم الفكريّ مع المشكّكين والملحدين في قدرة العقل على المعرفة وحصر مصدرها في التجربة الحسّيّة الظاهريّة؛ لأنّهم تنازلوا عمّا شأنه وحده أن يحميهم ويحصّنهم من تأثير أساليب الملحدين الترويجيّة التشكيكيّة بتقويضهم دور العقل والمعرفة الدينيّة البرهانيّة في إدراك الواقع وتوجيه الحياة البشريّة.

ومن هنا فما نحتاجه للتحصّن من الإلحاد أوّلًا هو إعادة إحياء العقل البرهانيّ والمعرفة البرهانيّة في أنفسنا وعقولنا رغبةً في الحقّ وحده، لا إرضاءً للأهواء أو اتّباعًا للأوهام أو دفاعًا عن المأنوس؛ لأنّ هذا الإحياء بنفسه يعني التخلّص من كلّ هذه الأعطال المعرفيّة الّتي سبّبت كلّ المشاكل الاعتقاديّة والسلوكيّة للمجتمع البشريّ على مرّ التاريخ، والّتي دأب الأنبياء والأوصياء والحكماء والفلاسفة البرهانيّون على العمل لإصلاحها بالقدر الّذي تهيّأت له الأمم والمجتمعات.

المطلب السادس: تعزيز الحصانة الذاتيّة من الإلحاد في المجتمع

بعد أن عرفنا نظريًّا أهمّ الأمور الّتي ينبغي امتلاكها لإيجاد الحصانة الذاتيّة من الإلحاد معرفيًّا وعقديًّا، لا بدّ من الانتقال إلى كيفيّة إيجاد التحصين عمليًّا في المجتمع.

وهذا ما يمكن تحقيقه من خلال توظيف وسائل عامّةٍ ومتاحةٍ ومعتمدةٍ في عصرنا الّذي نعيشه وبحسب الظروف الموجودة لدينا في عصر التطوّر التقنيّ، وهي وسائل عرفيّةٌ محايدةٌ يمكن أن نروّج من خلالها للإيمان وأفكاره بدلًا من الإلحاد وأوهامه.

أي نستعين بما أستعان به الملحدون أنفسهم من وسائل وأدواتٍ سابقةٍ، ولكن بمضامين معرفيّةٍ صحيحةٍ وصائبةٍ.

منطلقين في ذلك من مقولةٍ مشهورةٍ للعلّامة السيد عبد الحسين شرف الدين ﵀: «إنّي وجدت منذ القديم أنّ الهدى لا ينتشر إلّا من حيث انتشر الضلال» [مختار الأسدي، إشكاليّة الوحدة الإسلاميّة عند السيّد عبد الحسين شرف الدين، مجلّة المنهاج، العدد 38، ص 140].

أوّلًا: التربية الصالحة وأثرها في تعزيز الحصانة الذاتيّة من الإلحاد

إنّ الأسلوب التربويّ الصالح المتوافق مع الفطرة السليمة ومبادئ العقل البدهيّة الغرض منه إحداث تغييرٍ في مقام النزوع من خلال السعي إلى رفع مستوى العقل العمليّ إلى الحدّ الّذي يقاوم ويوجب عدم الخضوع أو النزوع للرغبة التلقائيّة بالتفلّت من أيّ تقييدٍ، أو الانقياد والاتّباع لأرباب الفكر الإلحاديّ القائم على التشكيك المعرفيّ؛ جريًا للتوافق مع الأهواء والنوازع التلقائيّة. وهذا ما يتمّ تحقيقه من خلال التربية الصالحة.

وأهمّ الأساليب التربويّة الّتي تعزّز الحصانة الذاتيّة من الإلحاد في المجتمع:

أـ غرس محبّة معرفة الحقّ والحقيقة بدءًا من مرحلة الطفولة

إنّ الطريق الى امتلاك التفكير الحقّ، وبالتالي الموقف العقديّ السليم، لا ينحصر في تعلّم قانون التفكير البرهانيّ فحسب، بل لا بدّ من أن يتربّى الإنسان أوّلًا على إخلاص القصد نحو الحقيقة، وإلّا فإنّه سيتأرجح بين متابعة ما يمليه عقله وبين الانجرار وراء تزيين هواه أو أوهامه. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [سورة الجاثية: 23].

إنّ امتلاك العقيدة البرهانيّة المحصّنة يمكن تحقيقه من خلال التبكير بغرس روح البحث عن الحقّ والحقيقة وتنميتها في نفوس الأطفال واليافعين، بأن نعوّد أذهانهم مبكّرًا على أن تتأمّل، على أن تفكّر، فديننا فيه من النصوص الدينيّة ما يسدّ الحاجة إلى التأمّل، وليس في قرآننا الكريم أو في تراثنا الروائيّ الأصيل ما نخاف من نشره أو التأمّل فيه حتّى نتعامل معه بلغةٍ التلقين المحض، فالنصوص القرآنيّة والروايات الصادرة عن أهل بيت العصمة ﵈ فيها من الفكر الثريّ المرشد للعقل ما يكفي، لو تعاملنا معها بتلك الرؤية التأمّليّة.

كما أنّ ممارسة التفكير المنطقيّ المستقلّ مبكّرًا، سيقود أيضًا إلى عقلنة العواطف والانفعالات، بحيث يصبح الإنسان محبًّا لطلب الحقيقة أينما وجدها، ومتى وجدها، ولا يكون متابعًا لعاداته وتقاليده وموروثاته الدينيّة والاجتماعيّة، أو انفعالاته ومصالحه الشخصيّة والفئويّة بنحوٍ أعمى ومتعصّبٍ.

ب_ اعتماد التلقين المتعقّل في التربية العقديّة

ليس الغرض من توظيف التلقين المتعقّل مجرّد تكرار استحضار الأفكار الصحيحة في الذهن، وطرد ما ينافيها من الأفكار، فإنّ عمليّة الإدراك والتفكير فعلٌ للنفس في الجانب الإدراكيّ لها، وهي وإن كانت تستأنس بالأفكار الّتي يستحضرها الإنسان كثيرًا، غير أنّ استئناسها سيكون بشكلٍ أكثر رسوخًا وديمومةً فيما إذا كان ذلك التلقين يستند على أسسٍ ومبادئ عقليّةٍ، لا التلقين لمجرّد التلقين.

ومن أمثلة التلقين المتعقّل في التربية العقديّة التلقين لبعض الرؤى والمفاهيم الدينيّة الأساسيّة كالشهادتين وبعض المفاهيم العقديّة المتضمّنة في الأذكار والأدعية ذات المضامين العقديّة الجليلة المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام، والّتي يمكن تكرارها خلال أوقاتٍ وأمكنةٍ معيّنةٍ؛ وذلك لأنّها تؤدّي وظيفة التلقين الإيجابيّ المتعقّل للنفس حتّى تستأنس بالمعارف الدينيّة الحقّة، وتترسّخ فيها، وكذا مراعاتها واستحضارها في مقام العمل، فإنّ للعمل الجماعيّ كصلاة الجمعة والجماعة والحجّ تأثيرًا قويًّا على النفس في بعديها الإدراكيّ والنزوعيّ معا، وبما يجعل تلك المعارف العقديّة راسخةً في الجانب النزوعيّ من النفس، فإنّ مقام الرسوخ والاستحواذ هو نتيجة التلاقي بين الجانب الإدراكيّ والنزوعيّ في النفس.

وتتجلّى أهمّيّة التلقين المتعقّل في خصوص الأطفال في مراحل الطفولة المتأخّرة؛ إذ إنّ لديهم القابليّة على تقبّل الآراء والحقائق عن الكبار، وتكون لديهم قابليةٌ كبيرةٌ للاستهواء والانقياد، كما أنّ قدرتهم على التفكير المجرّد تكون جيّدةً، فيميلون إلى الاحتكاك بالكبار وأخذ المبادئ والمعايير والقيم عنهم، وبذلك سيصبح الطفل في هذي المرحلة قادرًا على إدراك الخطإ والصواب في الأفكار والسلوك؛ ولهذا كان منهج التلقين المتعقّل لأساسيّات الدين في هذه الفترة هامًّا للغاية، فيكون تلقينه المفاهيم الصحيحة وسيلةً جيّدةً في هذه الفترة، خاصّةً وأنّ الولد مستعدٌّ للتقبّل والاقتناع، وبذلك تتكوّن لدى ذلك الطفل مفاهيم تصبح أكثر وضوحًا مع تقدّمه في السنّ، وبهذا يستطيع أن يفهم النظريّات المجرّدة على نحوٍ أفضل.

ومن هنا نجد أنّ هنالك اهتمامًا مميّزًا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالنشء والأحداث، يقول الإمام الصادق عليه السلام في وصيّته لأبي جعفرٍ الأحول: «عليك بالأحداث؛ فإنّهم أسرع إلى كلّ خيرٍ» [الكلينيّ، روضة الكافي، ج 8، ص 54، ح 66].

ويعود ذلك لسببين أساسيّين هما: رقّة قلوبهم وصفاء أذهانهم في الجملة، وعدم تمكّن الجهل المركّب بعدُ في نفوسهم؛ نتيجة عدم ترسخ الأفكار الترويجيّة الباطلة.

جـ ـ توفير بيئةٍ تربويّةٍ ملائمةٍ لحرّيّة الفكر وسلامة الفطرة الإنسانيّة

إنّ الوقاية من ظاهرة الإلحاد في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة يستلزم بدايةً توفير بيئةٍ تربويّةٍ أسريّةٍ واجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّةٍ ملائمةٍ لحرّيّة الفكر وسلامة الفطرة الإنسانيّة؛ فتقييد الحرّيّات يولّد التطرّف والتعصّب ضدّ ما هو سائدٌ من مفاهيم وقيمٍ، ويضع الشبّان دائمًا في خانة العناد، والذهاب إلى شدّ أقصى طرف الخيط في المعاندة لكلّ ما هو مألوفٌ أو متّفقٌ عليه في المجتمع [انظر: حوارٌ مع المفكّر مصطفى النشار، مجلّة الاستغراب، العدد 7، ربيع 2017، ص 25]، كما يستلزم ثانيًا عدم تمكين الخطاب الدينيّ المعتدل من الوصول إلى التجمّعات الشبابيّة عمومًا.

وقد ساهم في توفير البيئة الاجتماعيّة والسياسيّة الملائمة لقبول الإلحاد جملةٌ من الأسباب، من أهمّها: دور الظلمة والطواغيت وسيطرة الأنظمة السياسيّة المستبدّة والجاهلة على مرّ التاريخ على مقدّرات الأمّة الإسلاميّة، بعد إقصاء القيادة السياسيّة والاجتماعيّة الشرعيّة لأهل البيت عليهم السلام، وكما قيل: «إنّ الناس على دين ملوكها».

كما ينبغي ألّا ننسى دور الأنظمة المستبدّة والمنحرفة المباشر في محاربة المعرفة والتعقّل الصحيح، وترويج البدع والخرافات، ودعمها للمذاهب الفكريّة المنحرفة، الّتي تؤمّن مصالحها غير المشروعة، وتحطّ من قيمة الإنسان، كالمذهب السلفيّ السطحيّ المتحجّر الّذي يحارب العقل والمعرفة والاجتهاد، والمذهب الجبريّ الّذي يسلب أيّ دورٍ للإرادة الإنسانيّة في الإصلاح والتغيير، أو في تعيين مصير الإنسان ومستقبله في الحياة، ويجعل كلّ شيءٍ معلّقًا على القضاء والقدر الحتميّ، وكالمذهب الصوفيّ المغالي الّذي يُسقط المسؤوليّة الاجتماعيّة بالكامل عن كاهل الإنسان ودوره في الخلافة الإلهيّة، ويستبدل به دور العاشق المُهيم في حياته، بل ويجعله يتنكّر لأصل وجوده ووجود الأشياء والأسباب في الكون.

وهنالك أيضًا دور بعض الأنظمة السياسيّة اللادينيّة كالأنظمة الشيوعيّة والاشتراكيّة والعلمانيّة، فهذه الأنظمة لا ينحصر دورها بترويج الإلحاد وإشاعته في المجتمع وممارسة دورٍ استبداديٍّ في محاربة الدين وإقصائه عن جميع مجالات الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، بل يهدفون إلى نفي أيّ قيمةٍ للعقل البرهانيّ، ونفي البعد الروحيّ والمعنويّ للإنسان، وحصر وجوده في الشؤون الحيوانيّة المحضة، وبالتالي إفراغ الدين عن محتواه الحقيقيّ في تحرير الناس من العبوديّة الخارجيّة والباطنيّة، بحيث يعتقد الإنسان بأنّه مستغنٍ وغير محتاجٍ لأيّ تدبيرٍ إلهيٍّ، وكلّ هذه الأمور ستمنع الأحكام الفطريّة من الإقرار بوجود المبدإ، كما أنّ تلويث المجتمع بالأفكار والنزعات المادّيّة سيقود إلى ما يستوجب الهشاشة العقديّة أو انحراف العقيدة وبالتالي تكون تلك المجتمعات غير محصّنةٍ تجاه المدّ الإلحاديّ الّذي يستهدف تلك الثغور الموجودة في البِنية العقديّة لديهم.

د_ القدوة الحسنة ودورها في تعزيز الحصانة الذاتيّة من الإلحاد

تعدّ القدوة الحسنة واحدةً من أهمّ أساليب التربية الدينيّة وأبرزها وأقواها تأثيرًا؛ لأنّ الناس بفطرتهم يحبّون بلوغ درجات الكمال فيمن يعدّونه قدوةً لهم؛ لذا فإنّ إيجاد القدوة الحسنة في حياتهم سيثير لديهم قدرًا كبيرًا من الاستحسان، والتقدير والمحبّة فتهيج دوافع المحاكاة لديهم، ويحاولون تقليد ما استحسنوه وأعجبوا به، وهذا ما يقود إلى وجود ضابطٍ ومعيارٍ نفسيٍّ وفكريٍّ وسلوكيٍّ. ومن هنا ركّز المنهج الإلهيّ في إصلاح البشريّة وهدايتها منذ القدم على نصب القدوة الحسنة وشروطها، قال تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: 90].

ويقابل أسلوب القدوة الحسنة أسلوب صناعة الرموز الإلحاديّة في المجتمع، وتقوم فلسفة وجود القدوة الحسنة في التربية على أساس تأثير الطباع بالطباع الأخرى، فحاجة الاقتداء غريزةٌ مغروسةٌ في نفس كلّ إنسانٍ، تظهر نتيجة الميل إلى المحاكاة والاتّباع [انظر: نذير الحسني، النظريّة التربويّة في القرآن، ص 188] لا سيّما في الأمور الّتي يتحقّق له بها نفعٌ أو تدفع عنه ضررًا.

ثانيًا: التعليم والإرشاد الدينيّ ودورهما في امتلاك الحصانة الذاتيّة من الإلحاد

يعدّ التعليم العنصر الأهمّ في وصول الأفكار وتعزيزها في ذهن المتلقّين، ومن أكثر الأساليب تأثيرًا وفاعليّةً في تكوين قناعات الناس وعقائدهم.

ويأتي التركيز على خصوص التعليم والإرشاد بعد التربية في تعزيز الحصانة الذاتيّة من الإلحاد؛ باعتبار أنّ الإنسان في بدايات نشوئه هو في مرحلةٍ غير قابلٍ للاستقلال بتعليم نفسه من دون تربيةٍ وتلقينٍ سابقٍ؛ لأنّه ليس مؤهّلًا للتعقّل بشكلٍ كاملٍ، بل هو يمتلك تلك القدرة تدريجيًّا؛ ولذا عندما يكون مؤهّلًا للتعقّل بشكلٍ مستقلٍّ، يمكننا عندئذٍ أن نقوم بتعليمه بشكلٍ تفصيليٍّ وأوسع.

فإذا استقلّ ذلك الإنسان بنفسه يستطيع أن يقوم بتحصين نفسه بالتعلّم. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة القصص: 14].

وأهمّ الأساليب أو الخطوات العمليّة المعتمدة للتهيّؤ وبلوغ ذلك الهدف:

أ_ إدخال المناهج العقليّة في النظام التعليميّ العامّ

إنّ الغرض من إدخال المناهج العقليّة في النظام التعليميّ الداخليّ للمدارس والجامعات الأكاديميّة والحوزات والمدارس الدينيّة إنّما هو لجعل المتعلّمين قادرين على أخذ عقيدتهم عن برهانٍ عقليٍّ، بدلًا من تلقينهم المسائل العقديّة مجرّدةً عن الدليل، أو في أحسن الحالات يتمّ تلقينهم الأدلّة وتحفيظها

فقط، وليس جعل المتعلّمين شركاء في فهمها.

إنّ تحقيق الحصانة من الإلحاد يحتاج إلى أن تصير المعايير العقليّة والمبادئ الفطريّة والبدهيّة موضع درسٍ وتعليمٍ في جميع منافذ العلم في المجتمع، وخصوصًا الأكاديميّ منه؛ لأنّه هو المعنيّ بتعليم عامّة الناس.

وأمّا بخلاف ذلك فهذا معناه أنّه لم يتمّ بناء العقيدة الدينيّة بناءً معرفيًّا ومنطقيًّا، بحيث يصير معتقدًا بها عن تعقّلٍ وشريكًا في إقامة الدليل عليها، فلا يمتلك الحصانة الذاتيّة الحقيقيّة، وإنّما تكون حصانته عرضيّةً هشّةً.

ولذلك إذا كان منهجنا في بناء الرؤية العقديّة منهجًا غير عقليٍّ ولا مستضيءٍ بالعقل، فلا بدّ أن نتوقّع مجتمعًا ماديًّا أو خرافيًّا، منحرفًا عن أحكام العقل الفطريّة.

إنّ اعتماد أكثر مناهج التعليم في عصرنا الحاضر على المنهج التجريبيّ والحسّيّ الاستقرائيّ، وإقصاء المناهج والعلوم العقليّة منشؤه أنّ المعاهد العلميّة في عصرنا الحاضر في الأعمّ الأغلب هي من صنع الماديّين، أو أنّها لا أقلّ خاضعةٌ أو متأثّرةٌ بالمنظومة الماديّة في التعليم مضمونًا وشكلًا؛ نتيجة سيطرة منظّمة اليونسكو الرسميّة عليها في تحديد موادّها ومراحلها وغاياتها وأهدافها المتوافقة مع الرؤية الكونيّة الماديّة. [انظر: محمد ناصر، تطوّر الماديّة والإلحاد في العصر الحديث، مجلّة الدليل، العدد الثالث، ص 274]

ب_ اعتماد الأساليب البرهانيّة في تعليم العقيدة

والغرض من اعتماد الأسلوب التعليميّ البرهانيّ في تعليم العقيدة هو لإحداث تغييرٍ في مقام الإدراك، من خلال السعي إلى رفع مستوى إدراك العقل النظريّ إلى الحدّ الّذي لا يوجب انحصاره وانحساره على المادّة. أي زيادة الوعي والقابليّة الإدراكيّة الموجبة لتحصيل الحصانة في الناس من تأثير الخطاب الإقناعيّ للإلحاد والماديّة عمومًا.

إنّ جوهر مشكلة التعليم والإرشاد الدينيّ ليس في أنّ القيّمين على التعليم الدينيّ لم يعلّموا الناس أو لم يلقّنوهم المفاهيم والقيم الدينيّة، بل تمّ تعليمهم وتلقينهم الدين والعقيدة، ولكنّ مثل ذلك التعليم والتلقين لا يعطي حصانةً ذاتيّةً للخاضعين له، فما لديهم من رسوخ أفكارٍ لا يرجع لطبيعة حصانة مضمون الفكر الّذي يعتقدونه، بل لأنّه لا يوجد فكرٌ مضادٌّ له! وهذا لا يحقّق الهدف الحقيقيّ للحصانة؛ لأنّ النصر سيكون في النهاية حليف صاحب الترويج الأقوى والتأثير الأبلغ. فالمهمّ هو ليس ببلوغ النتائج فحسب؛ لأنّ من امتلك عقيدته الحقّة من خلال الأساليب الجدليّة والخطابيّة مثله مثل

أيّ صاحب عقيدةٍ اكتسبها من خلال الأساليب التعليميّة الباطلة الّتي تسطّح الذهن، وأيًّا كانت عقيدته، وإنّما المهمّ في حصانة العقيدة امتلاك معيارٍ صحيحٍ في تمييز ما له صدقٌ بذاته عن غيره ممّا نصدّق به لعارضٍ يعرض عليه.

إنَّ شيوع ظاهرة التقليد في الأخذ بالعقيدة منشؤه اتّباع الأساليب التعليميّة الخطابيّة الّتي تعتمد المقبولات والأساليب الجدليّة الّتي تعتمد على المشهورات بوصفها مقدّماتٍ لها في إيصال العقيدة وترسيخها.

وهذه الأساليب وإن كانت قد تنفع في ترسيخ بعض الأفكار والعقائد الحقّة وجعلها حاضرةً ولكنّها سلاحٌ ذو حدّين؛ لأنّك يمكنك أن تمارسها على مضمون صائبٍ ومضمونٍ خاطئٍ أيضًا.

ولذلك لم يكن مستغربًا أن يتحوّل المتديّنون في كثيرٍ من الأحيان إلى مجرّد أتباع تقليدٍ أعمى؛ لأنّهم نشؤوا وتربّوا واعتنقوا وتعلّموا دينهم على أساس اتّباع الأحكام المشهورة في المجتمع ومقبولات الكبراء ممّن يتأثّرون بهم عند تعليمهم. وما ذلك إلّا نتيجةٌ لوجود تقصيرٍ واضحٍ عن القيام بالدور التعليميّ البرهاني السليم.

وإلّا ما الفرق إذن بين اتّباع الآباء والكبراء في عقائدهم غير الحقّة الّتي ذمّ القرآن الناس عليها[1] وبين بناء العقيدة الحقّة باتّباع أساليب ترسيخيّةٍ محضةٍ غير مستضيئةٍ بنور العقل؟!

أليس كلاهما ينطلق من مجرّد اعتيادٍ وتقليدٍ منشؤه انفعالاتٌ ومشاعر باطلةٌ لا علاقة لها بتشخيص الواقع؟ حتّى أمست بعض الأديان لدى عامّة الناس مجرّد تقاليد وموروثاتٍ لا أكثر؛ ولذا فهي تتبدّل بتبدّل الزمان، بينما يفترض بالعقيدة الصحيحة أن لا تبنى على التقليد والاتّباع المحض، بل برفع وعي الناس والقناعة التامّة بها.

فليس المقصود من تعزيز الحصانة من الإلحاد عند المتديّنين مجرّد جعل العقيدة حاضرةً وراسخةً في نفوسهم بالفعل، بل المقصود من حصانتها إيجادها وتعقّلها قبل حضورها وترسيخها في النفس؛ ولذا لا بدّ في مثل هذا التعزيز للعقيدة من معيارٍ، لا بد فيه من ميزانٍ هو في مقام أصل مشروعيّتها والمبرّر للتمسّك بها، لا مجرّد جعلها مؤثّرةً في النفس في مقام فاعليّتها من خلال الإقناع بالوعظ والإفحام.

---

(1) وقد نصّ القرآن الكريم في آياتٍ عديدةٍ على بطلان تقليد الآباء والكبراء لمجرّد كونه يمثّل تمسّكًا عاطفيًّا بتراثهم. وقد كان أكثر ما كان الأنبياء يعانون هو تمسّك الناس بأعرافٍ وتقاليد ورثوها عن آبائهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: 22]، وكبرائهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [سورة الأحزاب: 67].

وأمّا التذرّع من قبل البعض في تبرير تركيزهم على الأساليب الخطابيّة والجدليّة في بناء العقيدة الحقّة وردّ الشبهات المطروحة في قبالها بدعوى أنّ الناس لا تفهم أو لا يمكنها الوصول إلى الحقّ في الأعمّ الأغلب، فيرد عليه أنّ منشأ عدم الفهم هو في عدم تعليم الناس لكيفيّة الاستدلال على ما يعتقدونه، حتّى أصبح من يمتلك الحصانة الذاتيّة من تأثير الملحدين في ظلّ هذا الواقع التعليميّ والتربويّ إنّما يعتمد فقط على جهوده الخاصّة أو على ما لاقى في حياته من تعليمٍ وتربيةٍ صحيحين.

أمّا الهروب من تعليم الناس أو تربيتهم بدعوى قصورهم وعدم فهمهم، فهذا لا يُسقط التكليف بأن نسعى لتعليمم وتربيتهم، وبما يجعلهم محصّنين من الوقوع في شبائك الملحدين وأساليبهم المضلّلة.

جـ تفعيل دور الإعلام والتبليغ الدينيّ في تعليم العقيدة البرهانيّة المحصّنة

إنّ النجاح الّذي حقّقته وتحقّقه المنظومة المادّيّة الإلحاديّة في كسب الأتباع يرجع السبب في أغلبه إلى ضعف دور الإعلام والتبليغ الدينيّ في تعليم العقيدة البرهانيّة الحصينة في المجتمع.

إنّ ضعف دور الإعلام والتبليغ الدينيّ في تعليم العقيدة البرهانيّة المحصّنة في المجتمع يمكن إرجاعه إمّا إلى اختلالٍ في الدور التنظيريّ والتأسيسيّ لمضمون الخطاب الدينيّ، أو إلى اختلالٍ في كيفيّة إيصال مضمون ذلك الخطاب والتوجيه الدينيّ أو اختلالهما وضعفهما معًا، وهذا ما سيقود لاحقًا وبالضرورة إلى ضعف الحصانة الذاتيّة من الإلحاد؛ نتيجة هشاشة المنظومة العقديّة لدى عامّة الناس وانحرافها.

فلو لم تكن نفس عمليّة التنظير للمنظومة الدينيّة في الإعلام، أو طريقة إيصالها وترويجها في المجتمع تعاني من ضعفٍ وهشاشةٍ في جانبٍ من الجوانب، لما كانت المنظومة المادّيّة لتنجح في نشر مبادئها وإقناع المتديّنين بها، أو على الأقلّ تكريس عزوفهم العمليّ عن الاهتمام بتعاليم الدين إلّا من وحي عاطفة الانتماء المذهبيّ له أو لأجل مكاسب مادّيّةٍ زائلةٍ.

وهذا ما يقتضي النظر في جانبين اثنين: الأوّل طبيعة المضمون الدينيّ الّذي تروّج في الإعلام، والثاني طبيعة الأسلوب المتّبع في إيصال ذلك المضمون وترويجه.

أمّا بالنسبة إلى الأوّل فيمكن إرجاع سبب الضعف فيه إلى أمرين بارزين يمكن ملاحظتهما عند بعض منظّري التبليغ والتوجيه والإعلام الدينيّ، وهما:

السبب الأوّل: غلبة التركيز على المضمون الدينيّ الّذي يغذّي الحالة النفعيّة في التعامل مع الله والناس، دون العمل على ترقية النفوس نحو مقام العمل لأجل الخير بذاته أو حبًّا بالله.

فإنّه وإن كان صحيحًا أنّ الناس على مراتب مختلفةٍ ومتعدّدةٍ في الفهم ومدى التأثّر، وأنّ قسمًا

كبيرًا منهم لا تحرّكه إلّا العصا والجزرة، غير أنّ ذلك لا يبرّر حصر مضمون الخطاب الدينيّ في الإعلام والتبليغ الدينيّ بما يتناسب وهؤلاء وبما يلائم هذا الغرض فحسب، فمضافًا إلى هؤلاء هنالك من لا يحرّكه ذلك ولا يؤثّر فيه، وهم ليسوا بقليلٍ.

والمفروض في مواجهة هذا الخلل هو العمل على الرقيّ بالنفوس نحو مقام العمل لأجل الخير بذاته أو حبًّا بالله وإخراجها من حالة إلوهيّة هوى النفس ومحوريّة الذات ومعياريّة المشاعر في التعامل مع القضايا الدينيّة إلى الحالة الإنسانيّة المبنيّة على الفهم والتعقّل وطلب الخير لذاته، وإلّا فإنّهم سيكونون عرضةً للتأثير عليهم من قبل من يمتلك إغراءً وترهيبًا أشدّ تأثيرًا في نفوسهم.

السبب الثاني: غلبة التركيز على المضمون الدينيّ الّذي يرتبط به الناس بنحوٍ عاطفيٍّ ونفسيٍّ دون المضمون الّذي يرتبط به الناس بنحوٍ عقليٍّ ومعرفيٍّ، وهذا ما أدّى إلى اقتصار الإعلام والتبليغ الدينيّ على الجانب التاريخيّ القصصيّ للدين، المثير للعواطف والمشاعر، وقلّل من التطرّق إلى المسائل الدينيّة العقليّة الّتي ترقى بمعارف الناس وسلوكهم، وتحلّ مشاكلهم الفرديّة والأسريّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

وهذا ما أدّى إلى غلبة التركيز على الخطاب الدينيّ الّذي يختلط فيه ما هو من الدين بما هو من تقاليد المجتمع أو أعرافه وعاداته وخرافاته دون أن يكون لتلك التقاليد والأعراف والمعتقدات أيّ أساسٍ شرعيٍّ أو دينيٍّ أو عقليٍّ. بل كثيرًا ما اختلطت وتختلط الأمور الّتي قام عليها الدليل القاطع بالأمور الّتي لا تجد لها دليلًا حاسمًا، بل اختلطت بالأمور الّتي لا دليل عليها أصلًا أو قام الدليل الحاسم على خلافها. وهذا ما أدّى في نهاية الأمر إلى أن تكون نظرة المتديّن التقليديّ البسيط إلى الدين محمَّلةً بكمٍّ كبيرٍ من الأفكار والسلوكيّات الّتي لا علاقة لها بالدين، ومع ذلك ينظر إليها على أنّها منه.

وأمّا الخلل والضعف في إيصال مضمون الخطاب الدينيّ إلى أفراد المجتمع، فمنشؤه يرجع في جزءٍ كبيرٍ منه إلى سببين أساسيّين أيضًا:

السبب الأوّل: أنّ قسمًا من المبلّغين والإعلاميّين مقتنعون بأنّ دين الناس سيكون بألف خيرٍ وسيحافظ على قدسيته وموقعه في النفوس إن كان اعتناق الناس له على طريقة دين العجائز[1].

وهذا ما قاد إلى امتداح هؤلاء لتلك الطريقة طالما أنّ الناس مستمرّون في الأعمال العباديّة وملحقاتها، ويواظبون على إقامة المراسم الدينيّة في المناسبات الدينيّة من دون إثارة أيّ تساؤلاتٍ بخصوص الدين ومعارفه. ولكنّه يرد عليهم أنّ هذا طريقٌ بالعرض لمعرفة العقيدة الحقّة والطريق

(1) هي عبارةٌ ورد ذكرها عند جماعةٍ من المتكلّمين، وغالبًا ما يردّدها بعض الخطباء ممّن تمنّوا أن يموتوا على دين العجائز، ومقصودهم بذلك إمّا عدم جدوى الاستدلال على إثبات العقيدة الحقّة لظهورها وجلائها وفطريّتها، أو أنّ العوامّ ـ أو العجائز خصوصًا ـ يأخذون عقيدتهم بالفطرة والسليقة الصافية.

الصحيح في امتلاك العقيدة الحصينة هو ما كان بامتلاك المعرفة العقديّة الحقّة بالذات؛ ولذا فإن مثل هذا الإيمان والاعتقاد قد لا يصمد أمام كلّ ما يواجهه من شبهاتٍ أو تشكيكاتٍ.

وهنالك من المبلّغين مَن قال أو أوحى بأكثر من ذلك بتوهّمه أنّه كلّما زاد عقل الإنسان قلّ دينه، وأنّ من مستلزمات الوصول إلى الإيمان الصحيح أن يقوم الإنسان بكبح جماح العقل ولجم أسئلته القلقة المشاغبة، ظنًّا منهم بأنّ هذه الأسئلة ستؤدّي لا محالة إلى زعزعة إيمانه وتذبذب يقينه، وهذا في واقعه على نقيض ما صرّح به النصّ الدينيّ من قرآنٍ وسنّةٍ من تقديس دور العقل ومحوريّته وحاكميّته، ودوره في التعرّف على أسرار خلق الله وعظيم صنعه والتصديق بأنبيائه ورسله، بل هو عكس ما يريده الدين من الناس، فبدلًا من أن يكون مَن له عقلٌ ذا دينٍ، أصبح من لا عقل له ذا دينٍ صحيحٍ!

وهذا ما يعني بطبيعة الحال فقدان التمييز بين الممارسة الواعية المرتبطة جوهريًّا بغايات الدين والمنعكسة على سلوك المتديّنين، وبين الممارسة الطقسيّة الّتي يتمّ فيها بتر العلاقة بين الممارسات وغاياتها، فتجد الإنسان يمارس عباداته وطقوسه، ولكن في المقابل تجد أعماله وأخلاقه وتعاملاته لا تنبع من تعاليم الدين ومبادئه الحقيقيّة. وهذا ما فسح المجال إلى أن تجتاح المادّيّة بإعلامها المدجّج بأحدث الوسائل والتقنيات تلك المجالات بتعاليم ترعى تنظيم الفرد والأسرة والمجتمع. فالمشكلة ليست في أنّ هناك من يتعامل مع عقائد الناس بأسلوب التلقين والتقليد وحسب، بل الأخطر أنّ هناك من يرى أنّ دين الناس يفترض أن يبتني على التقليد في الاعتقاد، والاقتصار على الخطابيّات، ولا يرى بأسًا بشيوع ما لا أساس له طالما أنّه يخدم ارتباط الناس عاطفيًّا وسلوكيًّا بالدين، ويرى في التعدّي عن ذلك أو محاولة التصحيح خروجًا عن الطريقة الّتي تناسب الدين إن لم يره خروجًا عن الدين نفسه!

السبب الثاني: أنّ بعض المتصدّين لوظيفة التبليغ الدينيّ والإرشاد لتعاليمه لم يكونوا في أغلب الأحيان من أصحاب المعرفة التخصّصيّة الواعية والحقيقيّة بالدين وغاياته، ولا ممتلكين للحكمة والدراية والنضج الكافي، فبرز ممّن يتصدّى لمهمّة التبليغ الدينيّ من عُرف بضآلته العلميّة ساعده على ذلك براعته بالأساليب الخطابيّة والأدبيّة الشعريّة الّتي تستهوي الجمهور عادةً، حتّى شاع في الوسط الدينيّ فكرة عدم إمكان الجمع بين الممارسة التبليغيّة للدين والتحصيل العلميّ المتقن للمعارف والأحكام الدينيّة. وإنّ ممارسة التبليغ الدينيّ والتفرّغ له علامةٌ على قصر الباع التحقيقيّ العلميّ لدى الكثير من الممارسين له، وهذا ما جعل البعض ممّن يمتلكون الكفاءة والقدرة العلميّة التحقيقيّة يبتعدون عن ممارسة التبليغ والخطابة الدينيّة وخصوصًا التقليديّة والجماهيريّة منها.

ولذلك كان الطاغي على من يفرّغ نفسه للعمل التبليغيّ الخطابيّ حالةٌ من الضحالة الفكريّة والمعرفيّة الّتي جعلت دائرة تأثيرهم محصورةً بمن هو على شاكلتهم. وهذا ما تسبّب أيضًا بأن تكون دائرة جماهيرهم وتأثيرهم محصورةً بالفئة البسيطة الساذجة من الناس، وأمّا من كان صاحب وعيٍ معرفيٍّ

بدرجةٍ ما، ومطّلعًا على الخلافات والآراء المتعدّدة، فلم يجد له مطعمًا في مائدتهم. ومثل هؤلاء ليسوا قلّةً بل هم كثرٌ.

الخاتمة

تمّ التوصل في هذه المقالة إلى جملةٍ من النتائج، من أهمّها:

1ـ أنّ جوهر الحصانة الفاعلة من الإلحاد في المجتمع هي الحصانة الذاتيّة، وليست الحصانة الخارجية، ويتحقّق ذلك بإيجاد تغييرٍ في أفكار المستهدفين أو نوازعهم الذاتية، وبما يجعلهم قادرين على تدبير نفوسهم ومقاومين للخضوع إلى تأثير الهوى أو الوهم المفضي إلى إلحادهم.

2ـ أنّ منشأ تأثير الممارسة الترويجيّة للإلحاد في نفوس يعود لأنّها توظّف مبادئ نفسانيّةً تكوينيّةً وهميّةً أو انفعاليّةً أو مبادئ خارجيّةً اجتماعيّةً تعتمد على الشهرة وعلى المقبولات، تقود في النهاية إلى التأثير على أفراد المجتمع معرفيًّا من خلال حرف بعض قوى النفس، وهي القوّة الحسّيّة والوهميّة والخياليّة والمتخيّلة عن وظائفها الأساسيّة، واستغلالها في إنكار وجود المجرّدات وإنكار القواعد العقليّة الكلّيّة باعتبار أنّها أمورٌ ليست جزئيّةً وليست مرتبطةً بالمادّة والحسّ، فلا تتمكّـن تلك القوى النفسيّة من إدراكها؛ لأنّها خارجةٌ عن مساحتها الإدراكيّة.

3ـ أنّ مشكلة المتديّن صاحب البِنية العقديّة الهشّة ومشكلة المتلقّي للوسائل الترويجيّة الإلحاديّة المتأثّر بها أنّه لا يعرف كيف يميّز بين المبادئ التلقائيّة غير الصالحة وبين ما يصحّ الاعتماد عليه معرفيًّا من مبادئ معرفيّةٍ صالحةٍ، ويتعامل مع الجميع بطريقةٍ تلقائيّةٍ واحدةٍ.

ولذا لا بدّ أوّلًا من امتلاك تلك القدرة على تمييز هذه المبادئ تفصيليًّا حتّى لا تختلط مع غيرها.

وثانيًا امتلاك رؤيةٍ كونيّةٍ عقليّةٍ؛ لأنّ جعل المتلقّين ممتلّكين لمثل تلك الرؤية سيجعلهم يميّزون أنّ الّذي يردهم من الملحدين من أفكارٍ ورؤًى هو أمرٌ فاسدٌ لا يصحّ الاعتماد عليه بأن توجد لديهم قدرةٌ على تمييز العقائد الصحيحة من الموهومة، من خلال تطلّع المتديّن إلى نفسه ليراجعها ويتساءل: هل أخذت عقيدتي وفق الرؤية الإلهيّة العقليّة الّتي يجب أن تكون مبنيّةً على مبادئ فطريّةٍ وصالحةٍ، أو على خلاف ذلك؟

4ـ يمكن وقاية المجتمع من الإلحاد من خلال اعتماد الطرق التربويّة الصالحة الموافقة للفطرة ومبادئ العقل البدهيّة واعتماد الطرق التعليميّة البرهانيّة البعيدة عن الأساليب الخطابيّة والجدليّة والشعريّة، بطرح العقائد الدينيّة بأسلوبٍ تعليميٍّ برهانيٍّ بعيدٍ عن الأساليب الّتي تسطّح الذهن في التعامل المعرفيّ على أساس دين العجائز المزعوم، أو على أساس التلقين المحض غير المتعقّل والتقليد في أصول العقيدة.

5ـ أنّ تعزيز أثر التعليم البرهانيّ والتربية الفطريّة الصالحة في النفوس يحتاج إلى تبليغٍ له مضامين معرفيّةٌ صحيحةٌ وإعلامٌ يتّبع أساليب مؤثّرةً وفعّالةً.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، تحقيق: آقا مجتبى العراقي، قم، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، ط 1، 1403 هـ ـ 1983 م.

ابن سينا، الحسين، النفس من كتاب الشفاء، تحقيق: حسن حسن زاده آملي، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، قمّ، 1375 ش.

أحمد محمد حسن، الميديا والإلحاد.. السينما واللاوعي.. الخطاب الشعبيّ للإلحاد، مركز دلائل، الرياض، ط 2، 1437هـ.

بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات الإعلام، دار الكتاب المصري ، مصر، ط 2، 1994 م.

الحسني، نذير، النظريّة التربويّة في القرآن، مؤسّسة العرفان للثقافة الإسلاميّة، دار الولاء، بيروت، ط 1، 2016 م.

القندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم، 1416 هـ

الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، روضة الكافي، منشورات دار الفجر، بيروت، 1428 هـ ـ 2007 م.

محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، قمّ، ط 1، 2017 م.

محمد ناصر، القانون العقلي للسلوك، ومضات للترجمة والنشر، بيروت، ط 1، 2018 م.

المصري، أيمن، الصحة العقليّة، سلسلة إصدارات أكاديميّة الحكمة العقليّة، قمّ.

المصري، أيمن، نهاية حلم "وهم الإله"، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، قمّ، ط 1، 2017 م.

المظفر، محمدرضا، المنطق، دار التعارف، بيروت، 2006 م.

اليوسف، عمار حسين، عقلنة الثقافة، دار المحبّين، قم، 2015 م.

المصري، أيمن، إن كنت عاقلًا فكيف تكون ملحدًا، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، قمّ، 2018 م.

المجلّات والمواقع الإلكترونية

مجلة الدليل، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، قم، العدد 2، 2018 م.

مجلة الدليل، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، قم، العدد 3، 2018 م.

مجلّة المنهاج، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، بيروت، العدد 38، 1426 هـ ـ 2005م.

مجلّة الاستغراب، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد 7، 2017 م .

مجلة الاجتهاد والتجديد، مركز البحوث المعاصرة، بيروت، العدد 18، 2011 م .

Refrence

Badawi, Ahmed Zaki, Media Terms Dictionary, Darul-Kitab al-Misri, Egypt, 2nd Edition, 1994 AD.

Al-Qundouzi al-Hanafi, Suleiman bin Ibrahim, Yanabee'ul-Mawadda li-Thawil-Qurba, edited by: Sayyid Ali Jamal Ashraf al-Hussaini, Darul-Oswa for printing and publishing, Qom, 1416 AH.

Al-Kulayni, Muhammad bin Ya'qoub bin Ishaq, Rawdhatul-Kafi, Darul-Fajr Publications, Beirut, 1428 AH/2007 AD.

Muhammad Nasser, Mental Law of Behavior, Wamadhat for Translation and Publishing, Beirut, 1st Edition, 2018 AD.

Al-Misri, Ayman, The End of "The God Delusion" Dream, al-Daleel Institute for Doctrinal Studies and Research, Qom, 1st edition, 2017 AD.

Al-Mudhaffar, Muhammad Reda, Logic, Darul-Ta'aruf, Beirut, 2006 AD.

Al-Yousuf, Ammar Hussein, Intellectualization of Culture, Darul-Muhibbeen, Qom, 2015 AD.